أحلام الأحمدي

مئا شعاريم

(رواية)

الكتاب : مئا شعاريم

الكاتب : أحلام الأحمدي

تصميم الغلاف: محمد بن منصور

التنسيق الداخلي للكتاب : نورالدين الوادي

الطبعة الأولى: 2018

ISBN: 978-619-91054-0-52018

جميع الحقوق محفوظة

"يمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي وسيلة

من الوسائل الورقية أو الالكترونية إلا بإذن خطي مباشر"

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي

دار الدراويش للنشر والترجمة

دَار الدَّراوِيش
DAR ALDARAWESH

جمهورية بلغاريا – بلوفديف

ФиБадер

www.darawesh.com

daraldarawesh@gmal.com

مئا شعاريم

(رواية)

أحلام الأحمدي

دَار الدَّراوِيش
DAR ALDARAWESH

جمهورية بلغاريا – بلوفديف

2018

3

كلمة.

لا تسألوا إن كانت الرواية حقيقة أم خيالا، بل اسألوا أنفسكم وأنتم تقرأونها إن كانت كذلك.

تفحصوا هذا الانسان الذي يرويها لكم، وتمعنوا في تفاصيله الصغيرة بين كلماته، وأسراره الدفينة بين مشاعره، ولا بد أنكم ستعرفون.

أحلام الأحمدي.

إهداء.

أهديك يا أيالا كل حبي، كل ذكرياتي التي عشتها بعدك منتشيا بها، تأخذني من عتمة الضعف والعذاب، لملائكية وجودك.

أهديك يا أهافا كل ما أملكه، من ذات من حياة، ومن حب ومن مجد، فأنت مجدي.

أرييل آشر.

إهداء الكاتبة.

إلى شهداء دير ياسين، وكل شهداء فلسطين، وكل شهداء الحق والعدالة أينما وجدوا في الأرض وفي أي زمان ومكان، مهما كانت دياناتكم وأشكالكم وجنسكم.

أنتم تاريخ الإنسانية فافخروا.

بوركتم.

إهداء خاص.

للأستاذ محمد شايطة .

مقدمة.

نحن ندين بالاعتراف، لشخصيات من غير ديانتنا، وقفوا أمام العالم بأسره ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

نحن لا نعرف حقيقة التاريخ الفعلي، الذي غيب بيد فاعل لطمس النور، الذي ينير درب الحق والشهامة والعدالة، وفي الأخير، لا بد أنه سينير ضمير الانسانية.

هم شهداء العدالة الذين ينتمون لها، والحقيقة التي مهما كانت نتائجها سيتحملونها كجبال شاهقة أمام الظلم وقهره، ومنهم البروفيسور يعقوب إسرائيل دهان، الذي كاد أن يغير تاريخ الشرق الأوسط عامة، وتاريخ فلسطين خاصة في ملحمة حقيقية، وقف فيها ضد احتلال الصهاينة لفلسطين، ودفع حياته ثمنا لذلك.

وقبلها استطاع بكل جهوده الوحيدة والجبارة، أن يؤثر في مجموعة من الشخصيات الأردنية والبريطانية رفيعة المستوى، لتغيير وعد بلفور، والذي كان حدا فاصلا في تسليم فلسطين غدرا.

لقد اغتالته اليد الصهيونية في حيفا، وبذلك استطاعت تدمير الوجه الحقيقي جغرافيا وسياسيا للشرق الأوسط.

فهناك عالم خفي لليهود، يطمسه الإعلام الاسرائيلي ويضيق عليه، لكي لا يظهر لنا وجه له فاه، يتكلم بالعدالة أمام الجبروت وقوة الظلم الصهيوني وعلوه، ولينطق بالحقيقة الوحيدة أيضا، والتي هي حق الفلسطينيين في أرضهم ووطنهم.

هذا العالم الخفي يخفي وراء جداران حي مئا شعاريم، مناضلون بواسل يحاولون الاعتكاف في عالمهم الصعب، لصنع وقفة ضد

الاحتلال الصهيوني للأرض المقدسة، إنهم الحرديم، الذين يحرقون في كل عام من ذكرى النكبة العربية علم اسرائيل.

بل إنهم يصومون ذلك اليوم، ليغفر الله لهم خطيئة الصهاينة، في تحدي أمر الله بانتشار اليهود في الأرض.

هم يقولون إن اليهود لا أرض لهم، وما سلب فليس من حق الصهاينة سلبه.

الحرديم هم طائفة كبيرة من اليهود، والذين يتحملون ظروفا قاسية من فقر وعزلة، منذ سبعين سنة، لأجل حق عودة فلسطين للفلسطينيين.

إنهم يمتنعون عن الاعتراف بما يسمونه الصهاينة بدولة إسرائيل، وانفصلوا انفصالا تاما عنها، وعن أي نشاط مهما كان نوعه ومستواه ضمن حكومتهم وكيانهم، فهم لا يتعاملون بعملتهم، ولا يتكلمون بعبريتهم والتي يعتبرونها حرمت عليهم بفعل ظلمهم وعدوانهم، على الشعب الفلسطيني.

بل لا يخدمون أبدا مصالحها، ولا يشاركون حتى في ما يسمى في الكيان الاسرائيلي، بالتجنيد والخدمة العسكرية.

لتجدوا عند مدخل حي مئا شعاريم، أو مئة باب بالعربية، عبارة "اليهود ليسوا صهاينة"

البداية.

القاتل لا تشيخ رغبته، ولا تموت إلا بموته، بل هو أعظم من الشيطان نفسه بل وأخبث منه.

إنه يداه في الأرض المنفذة شريعته عليها، وروحه الشريرة والملعونة التي تقتل بتمتع وزهو وفخر.

إنه العقل الفاجر المستبد، المتحكم في مشاعر مضطربة توقظ لذة شيطانية لا تقاوم، كلما تمتع بالقتل ومارس طقوسه، والتي تختلف بين ذواتهم القاتلة والمختلة.

ثم ماذا؟..

تتهادى اللذة جحيما، وصوت الأبرياء يكسر حاجز الانسانية داخلهم، يصبح الصوت هادرا مكتئبا مليئا بالخطايا، مضرجا بألم كأنه مئات من السهام المسمومة، المنغمسة مرة واحدة في قلب واحد.

مع الزمن؛ لا تشيخ الرغبة في القتل. أجل لن تشيخ.

ولكن اللذة تتحول ألما، ربما لأن قمتها أصبحت من الجهة الثانية، تستوجب النزول والسقوط والتكسر على أسفلها.

ربما مع الزمن أيضا، نستسلم رغم البطولات والكلمات المنمقة، وصوت الأيادي التي تصفق لنا، كلما رأت قامتنا القزمة أمام نفسية مجزأة ومهترئة.

والذي يغيب عن الكثيرين، أن القتل قد يكون مباحا بل وأنه قد يكون البطولة الخالدة، مدى الدهر وطول التاريخ.

أجل. فعندما تقتل لأجل عقيدتك فمجتمعك وطائفتك وجنسك يبيحك بطلا وقامة، يكتب لأجلها التاريخ فصلا وربما فصولا.

ستصبح اسما مؤرخا كاسمي أرييل آشر، الصهيوني الذي أصبح ملاك الموت، القائد في كتيبة البلماخ وفي الهاجاناه الصهيونية، والتي بدأت منها حكايتي، وأسطورة لا تحمل غير صور الدم والملاحم الحمراء، للبلماخ الصهيوني دون منازع.

البطل الذي كان ذكر اسمه يرسل القشعريرة، حتى داخل نفسي، ويهز خط يدي فيخلف تعرجات على سيرة ذاتية محمومة بالأحداث، لن يستطيع فيها حتى أذكى البشر، أن يخمن أحداثها وغرائبها، ويفهم كيف أن للقدر يدا تغير ما لا نستطيعه، وما لا نقدر عليه حقيقة كانت أو خيالا.

آرييل آشر.

طفولة قاتل.

قرية عين كارم

هذا المكان، كأنه سلطنة من المقدسات، تراب هذه القرية الجميلة يضج طهارة وقدسية.

العين التي تجري هنا فيها، كانت مريم المقدسة تسقي خالتها وأم يوحنا منها، وتشرب من مائها وتمشي على ثراها.

كما مشى يوحنا المعمدان والنبي زكريا عليهما السلام، بين هذه الآثار وهذه الطرقات.

قرية عين كارم، مسكونة بالقداسة ولولا قدسية القدس لقلت إنها المقدسة.

أما الطفولة هنا، فلن أعيشها حتى في الجنة المحرمة علي، ولن أراها ولو دفعت كل كنوز الأرض وما عليها.

أن ترى حقول الكروم تشق قبورا وآثارا منقوشة على الصخر.

أن تسمع صوت الطيور المغردة، وأعمدة الشمس تتخلل فتحات بين أوراق العنب، أن تسمع صوت الصبايا المسلمات يغنين أغاني توقظ الشجن والفرح، أن تسمع حكايا نصرانية عن أساطير القيامة، أن تعرف من عيون اليهوديات رغبتهن في الحب والحياة.

لتهب ريح نقية عليك مع هذا الزخم الجميل من الصور، كان قد عبر الجبال الراحلة نحو القدس بعطر.

وأخيرا. تشاهد جميع أطفالهن الذين لا يعرفون عن الطوائف سوى اللعب، دون توقف دون حتى تعب.

لقد ولدت هنا في قرية عين كارم، في يونيو من عام **1931** كنت طفلا لا يتوقف عن الحركة والاكتشاف، كنت أيضا متعبا وشقيا، لا تنفك والدتي عن قرص أذني بعد رجوعي مغبرا، وقد كستني كل تلك الأتربة المقدسة، التي تغطي ذكراها البعيدة هذه السطور.

أنا في ذاك الوقت إنسان آخر، طفل يخاف من الغول ويهاب الظلام، ويعشق وهو ابن الخامسة ابنة خالته أيالا.

كنت ذاك الذي لا يفهم من العالم سوى قريته، ولا يعرف من الوقت سوى الصباح والمساء من العالم جله.

وأكثر مشاكله كان العطش والجوع. ولا يحب أحدا في كل عالمه سوى محبوبته الصغيرة أيالا.

فليت ذاك الزمن والعالم والأشخاص يرجعون، بل ليتني مت وأنا لا أعرف من الدنيا، غير معضلة الحب، ومشكلة الجوع، والخوف من الغول الذي لم أره يوما وأنا طفل ضعيف، ولكنني رأيته كثيرا وأنا شاب قوي، وثائر عربيد، لا تهزه الصرخات الحقيقية، ولكنها في الأحلام تصبح غولا وصعلوكا.

هذه الحياة أيام معدودة وأي من هذه الأيام لن ترجع أبدا، ولن تتغير أبدا، ولكن سأعيدها عبر كلماتي، سأعيد تاريخ أرييل آشر، الذي قتل أربع مئة وعشرين رجلا، واغتصب عشرات النساء، سواء كانت امرأة أو عجوزا أو صبية دون رحمة.

أنا الذي عذبت دون حساب ودون محاكمة، حتى أعدادهم كانت أعدادا وافرة وفاقت ما تتخيله عقولكم.

أنا الذي كنت طفلا يحب أيالا، وفتى يعشقها وينتظر قدومها نحو العين المنسابة، لأروي عيني الآثمة من تفاصيلها العذبة..

تلك الأيام كانت الفاصلة والنقطة التي قسمت تاليها حياتي، وأنبتت بذرة تحولت لتنين أسود، يرتوي من الدم والعذاب.

هنا سأبدأ تفاصيل لم أذكرها قبلا، كنت أقاومها داخلي، وأحاول أن أجد سببا آخر غير الخيبة في الحب، وغيره لكي أرتاح، رغم أنه كان الحقيقة التي ستطفو هنا بين ذاتي، التي حولتها لمجرم يعشق القتل ويثيره كمختل.

الحب الذي قتلني.

أيالا..

تلك الأيام، كان النسيج في تلك القرية الصغيرة مثيرا ومدهشا، اقتضاب من سيرورة آمنة، لبشر مختلفين في كل شيء.

من العقائد إلى الأصل إلى التقاليد والعادات.

كنا قلة يهودية مع بعض النصارى والمسلمين، كل يعيش دون تأفف، دون أن ينقصنا شيء أو يغيرنا شيء، أو يجعلنا نتمنى أن نستولي على حق آخر أو حلم آخر، كنا نعيش ذاتا واحدة وفقط . وربما كأننا أطفال كبار، بل كأننا غابة ملئت شجرا، وما همها الاختلاف، فقد كانت مثلنا تعيش بين أحضان اختلافاتها بسلام و بساطة.

ولكن..

يد الشيطان تتسلل برفق آثم، وتستولي على الفتنة العذبة، لتحرقها عذابا.

أليس الحب من طرف واحد عذابا؟

أليس العشق والتمرغ فيه وحدك قمة الألم؟

أليست الغيرة الجارفة تسحق عقلك لثقب أسود قاتل؟

آه...كنت عاشقا مهووسا لأجمل امرأة رأتها عيناي، وكنت متسلطا لا أعرف غيرها حبا، لم أستطع أن أعرف كيف أحب أي شيء مرة أخرى بعدها ؟! كأن صدها علمني الكره، علمني أن أصبح تنينا ينفث نيرانه في أي شيء، وعلى أي شيء.

أيالا..

اسم معناه بالعبرية الغزالة، وهي كذلك ككائن أسطوري، يشبه غزالة مجنحة، صعبة المراس، عذبة التكوين، قوية الروح، حنونة اللثم والكلمات، تحتويك تناقضاتها لتصبح ملحمة مكتظة بالحب، بالفتنة والعقلانية، أخاذة شهية، فتحس أنك في قبضة ملاك الحب، ولا مناص لك إلا أن تسلم روحك لها طوعا أو كرها.

في الخامسة، رأيتها تسقط في مجرى للماء، فكنت سأجن خوفا لأنني تصورتها ستموت، وعندما بدأت البكاء، استطاعت هي النجاة والوقوف فالاقتراب مني، لتخبرني أن أتوقف عن النواح، آخذة بيدي تمسح دمعي وقد حطمت هلاكي.

هناك عشقتها، وأصبحت بالنسبة لي الحياة بما احتوته، بل إنها الهواء الذي تستحيل دونه أي حياة.

مرت الأيام وأنا أشب، ومرت الأيام عليها وهي تتورد وتزهر وتثمر وتتطاول عزة كنخلة باسقة، كأنها الملكة أو السيدة.

كنت مهووسا، أقضي النهار في تعقبها، لأقسم ذلك الأجر الزهيد، من عملي في بساتين الكروم التي يملكها جدي دانييل مع شمعون أخي، خوفا من عقاب والدي وكلمات أمي المستفزة، التي طالما أقسمت بها أن عشق أيالا سوف يقتلني.

وحقا..لقد قتلني.. غيرني ..سحقني لإنسان لا يمت للطفل أرييل العاشق بشيء.

التحول القاتل.

لا تستهينوا بقوة الحب، بقوة أثره على النفس، بعمق سطوته وسرعة قهره، وربما بجماله وروعة جنونه، رغم كل شيء، فهو يفسر الكثير عنا وعن انتماءاتنا وشخصياتنا.

يفسر مثلا، كيف هي مستويات مشاعرنا، وإلى أي خانة ننتمي نحن، لخانة أشخاص يستطيعون تفهم الرفض والصد، ويبتعدون ربما كجبناء أو محترمين.

أو إلى أشخاص مهوسين، لا تنفك خواطرهم عن تخيل المعشوق بين الأحضان وعلى السرير، وداخل منزل يحيطه سياج وسور حجري.

أشعر وأنا أتكلم عن هذا، كأنني أتمنى التمسك بنسيج الزمن، علني أستوقف الماضي. وبعدها الأحداث وبعدها القاتل أرييل، ولكنني أبرح هذا التمني فأكمل سطورا جديدة تتوالى، علها تكون الصديق الوحيد، الذي يربط بين نفسي وتاريخي، من البلماخ والهجاناه الصهيونية، إلى غاية تلك النقطة التي غيرتني.

عين كارم قرية ساحرة، جميلة لحد غريب، ربما قداستها التي امتصتها الأتربة والحجارة والكنائس والمعابد والآثار، جعلتها كذلك جذابة ومدهشة ومقدسة، وسط تلك الجبال الراحلة للقدس المقدس، أين كان ذاك المكان يحمل رهبة مقدسة، تجمع كل الديانات في مكان واحد على هذه الأرض.

حيث كنت أظن أننا نبحث عن مجده الغابر الذي سنعيده، ولكن بعد أن تمتصنا حفره بعيدا عن الإنسانية.

وبعيدا عن ذلك المجد، وذلك الحلم، كبرت أنا مع حلم وحيد. كان في تملك ابنة الخالة أيالا.

كنا عائلة كبيرة قد تزوج أبي بأمي، لتتزوج بعدها أختها الخالة سارة عمي موشي، يقال إنها أنجبت توأمين كانا بنتين، أيالا وطفلة أخرى ماتت أو اختفت بعد أن حملتها خالتي سارة نحو الجبال ليلا، دون أثر للطفلة بعدها، فلقد عانت من اكتئاب شديد مسها بعد الولادة، في قصة حزينة كانت ترويها أمي، لتموت الخالة بعد سبعة أيام من نفاس قاتل.

سافر العم موشي بعدها خارج القرية، واختفى أثره تاركا ابنته أيالا، وقد نبذها وراءه، عله ينسى موت حبيبته كأن هذه الطفلة ولدت لتدمر حياة الجميع، رغم أنها بريئة من لعنتها علينا.

مضى شيء من الزمن الوجيز، ليعشق جدي دانييل حفيدته الفاتنة، فقد أصابته بالجنون، عينان واسعتان عسليتان و بأهداب كثيفة، وجه جبني مستدير، خدود وردية تقتلك ولعا، كانت جميلة وأخاذة لدرجة خطفت لدنه حنانا فنظر لها وقال:

- عيون غزالة جميلة، سأسميها أيالا.

لقد وقع في حبها، رغم أنها فرقت بين ابنه وبينه كما كانت تقول وتكرر والدتي، لكنها استطاعت سحبه رغم هذا إليها وسيطرت عليه، لتصبح مدللته الغالية.

أما أمي. فقد كانت تكرهها دون كلام، طريقة نظراتها ومراقبتها لها كشفتها، ربما لاعتقادها الطويل أن أيالا السبب الوحيد في موت أختها، بالرغم من أن خالتي سارة، لطالما اشتكت من عصبية واختلال كبير في مزاجها، وضعف في قلبها.

أحيانا أفكر أن أيالا معجزة، لأن الخالة سارة استطاعت المقاومة والكفاح طيلة السبعة أيام بعد ولادتها تلك.

ولكن الجهل والكره يعمي قلوبنا، لدرجة نعيب فيها كل الأسباب والموجودات.

ورغم همسات أمي أن أيالا ملعونة، كنت أنا أعشق جنونها وقوتها وجمالها، كانت فاتنة لدرجة أن القلوب أمامها تذوي، ففور بلوغها الرابعة عشر، بدأ الناظرون إليها يهيمون بأشعارهم فيها، بل إن كل ناظر لها سيضرب مثلا لجمالها وحسنها بأي جمال بديع على الأرض.

كعيون أيالا.

تستنزفني صورها، والتي لم أستطع نسيانها طيلة عقود، كل امرأة أمامي تصبح وهما أمام حقيقتها وعملقة حبها، فأتأسف على نفسي، ثم أصارعها فأنهار.

لأبحث عن شيء يريحني، كالأفيون.. كالأدوية لأجد حلا أخيرا، وهي نشوة القتل وكنت قد توصلت لهذا بعد مأساتي.

أهي السبب؟ أم جنوني واضطرابي وقلة حيلتي أمام استبدادها وجبروتها؟!

فكل ما أريده واستحال علي، كان فقط أن أعيش خمس دقائق دون التفكير فيها، ولكنها ملعونة ساحرة، أسقطتني داخلها ما دمت حيا.

كعيون أيالا، أصبح مثلا يقال للعيون الجميلة، والسر أن عيون الغزلان أخذت جمالها من عيونها تلك، ولا بد أنها أخذت منها أيضا قوامها وغزارة وسحر أهدابها أيضا.

وعندما يلتقي الجمال الداخلي بجمال خارجي، سوف ينهار كل شيء أمام النظرات، السحر يبيد محاولاتنا الكثيرة في الهرب يا سادة! ويكسر جسور العبور الرقيقة بين الحقيقة والخيال.

فمثالية أنثى فاتنة، سيحطمك أو ينقلك عبر عالمنا السخيف، لجنة من المتعة والسعادة والجنون والصواب.

كنت ضحيتها التي تحولت لصياد، بل مارد خرج بكلماتها التي اصطادتني بها، لمارد عملاق وخارق وشرير.

أهي السبب مجددا؟

ربما توصلت وأنا أكتب للحقيقة، التي رحت أجر نهايتها لآخر عمري.

أحتاج بعدها لكمية هائلة من الأفيون، لتخدرني وليتني وأنا أهذي وأهلوس أنسى عشقي لها.

لأن النتيجة مروعة! كلما تذكرت تفاصيلها أنهار، أرتشف كمية هائلة من الماء الذي أذبت فيه المنوم، ورحت أبكي سنينا عجافا.

لعنة أيالا.

كنت اليوم ممددا فوق شبكة صنعتها، وقد ربطتها بين شجرتين، أغمضت عيني ووضعت الكيباه عليهما وغفوت، حتى رأيت صورة أيالا وهي تغرق في مجرى الماء مجددا، ولكنني وأنا أنتظرها كانت لا تعود إلي أبدا، لأنهض ثم أسقط أرضا ثم أنهض وأعاود السقوط، وقد ارتعد كل شيء يكونني.
أسرعت كأبله مرتجف وهائج، أبحث دون وجهة عنها، حتى دخلت لغابة مقدسية صغيرة، تجمعت أحراشها وأشجارها وصخورها الضخمة، التي تخفي بينها الأسرار والكثير من القصص بخفية وخفاء.

فأي طريق هذا؟

أي طريق هذا الذي سلكت سبيله دون وعي مني؟! و كيف وصلت هناك؟! لا علم لي فقد كان ذلك على غير هدى.

هناك فقط. تذكرت أنه كان حلما لا أرجعه الله، لكنني أحسست بشفقة غامرة، ورغبة جارفة وشوق وحنين لرؤيتها، فهناك شعور راودني بالطيرة والخوف مما رأيته.

جلست على حجر وعدلت الكيباه على رأسي، وماهي إلا هنيهات، حتى بدا لي صوت من الخطى والهمسات، لأختفي بين حجارة كبيرة وأحراش كثيرة، وحاولت النظر للقادم هنا.

ولكنني رأيت ما يهولني، ويقتلع النعاس من عيني بعدها.

فالقادم أيالا! والذي بجانبها وهو يقترب من المكان معها، وملامحه التي عرفتها قبل قليل، تجعلني أفتش عن كلمة مناسبة

تخفف من وطأة الذي يختلجني، من غضب جارف وحزن يهشم أضلع صدري بمطرقة عظيمة.

أليس هذا خليلا؟!

ورب موسى إنه هو! ومهلا على نفسي، فلقاؤهما لا يبدو لي من قبيل الصدف، فهو يرسم على محياه نظرة محبوب، وهي بسمة من الفجر تسرق بها قلبه و تطرحني أنا مصدوما ومثار جنوني، والأكثر أنه خليل الذي طالما رأيته متكبرا وسليطا، والأدهى عربيا مسلما!

تلك اللحظة، تجمد كل شيء يحتويني، حتى أنني تذكرت بعدها إحساسي بالاختناق الحقيقي، وذلك لأنني توقفت عن التنفس. عن التفكير، وربما توقفت حتى إنسانيتي، فلم أعد إنسانا بعدها.

رأيت بسماتها الصادقة، نظراتها المغرمة، كلماتها التي كانت من حقي أنا، فهي ملكي وملكيتي وهي لي.

هناك تراءت لي الكثير من الأفكار، من المتناقضات من الأسئلة والأجوبة والغضب، كان هذا كل ما سيطر علي بقوة هائلة بين تلك المشاهد الآن.

فقبل العشق هناك العقيدة، ولن نعترف بحب بين مسلم ويهودية بل سنمحوه من الوجود.

ولكن هل سأمحو أيالا؟! حبيبتي ومعنى وجودي واستمراريتي في الحياة؟!

ماذا أفعل أمام هذا الموعد الغرامي؟ لعله خطأ في التفسير. ولكنني أراه يمسك يدها وهي تسلمها إياه.

لالا..ربما هي لا تفهم ما تفعله! أم هي نزوة؟ أو أنه قد أجبرها ؟ لربما هي تحت قبضته؟ فالعزيزة لن تحب غيري، ولن تحب مسلما فهذا نقيض.

وعندما هممت لإنقاذها منه، تجمدت قدماي، أحسست بألم رهيب، فإذا بي أرى أن حية قد لدغتني، كما لدغت قبلها أيالا قلبي.

سقطت على الأرض وبدا لي أنها نهايتي كما تنبأت كلمات والدتي، نهايتي على يدي الحبيبة.

وعندها سقطت، كان الألم مبرحا والحية تنسل هاربة وقد أكملت النبوءة.

حتى رأيت خليلا وابنة الخالة بجواري، وهو يمزق سروالي من أسفله، ويخرج سكينه ويأمر أيالا بربط ركبتي بقميصه الذي مزقه، محاولا إخراج سم الأفعى، كنت أنا في نقطة بين الحياة والموت.

إنه ينقذني، يمتص السم من قدمي بفيه، كان يحاول إنقاذي وأنا أزداد كرها له، كأن الحية وأيالا يمثلان دورا ما، ويسندان البطولة لغريم أريد أن أطحن قلبه بأسناني.

وفجأة. وأنا أصارع الموت غبت عن الوعي، لا أعرف إن كانت ساعة أو يوما.

لأصحو بأنفاس ضعيفة وبعض من النور، وصوت خشب يحترق وكان الغريم قد أوقده.

تمعنت في كل ما يحيط بي، كان يبعد قليلا فقط عن المكان الذي رأيتهما فيه.

نظر لي. ثم تقدم نحوي حاملا بعض الشراب.

وضعه على الأرض، ثم أمسكني بذراعه وسقاني إياه.

وبعد هنيهة، أحسست فيها ببعض القوة تسري داخلي، فقد كان شرابا من الأعشاب يمتص السم من جسدي، ولكنه كان سما آخر ما توغل داخلي وسيطر علي.

سألته عندها عن أيالا، فأجابني أنها عادت للمنزل وسوف تحضر عصرا.

هاجني كلامه وصرعني الغضب لكنني كتمته، فقد أحسست بضعفي، الذي سيثنيني عن أي خطوة أو قرار.

صمت بعدها ساعة أو أكثر، لأسأله حاملا نبرة عاقل ومتفهم:

-منذ متى وهي معك؟

فرد على جثتي هذه:

-منذ أشهر. اسمع هي ..

أرأيتم آخر كلمة منه، لم أسمع بعدها شيئا، ما سمعته كان صوت الشيطان وهو يبني لي ذاتا أخرى، وينحت تفاصيل ذاتي الجديدة، وقد خربت أيالا كل الذي مضى من أرييل العاشق.

لأرييل آشر السفاح.

كان الفجر قريبا، لاحت خيوطه لعصر جديد لي، ورحت وأنا مغمض العينين أبني وطنا في خيالي، أراه للصهاينة أين لا يسرق العرب فيه نساءنا ولا تربتنا ولا مقدساتنا.

أرى وطنا. لا يتنفس فيه غير اليهود، من نهر الأردن إلى الفرات، و سيكون ذاك الوطن لي.

وأيالا لي وأولادها مني، وإلا سأدمرها وأدمر بعدها كل شيء في طريقي.

أنا العاصفة الآن، أنا الحجر، أنا المطر، أنا الغضب أنا الموت.

أنا من سيغير تاريخي وإن كان بالدم والعذاب وقهر كل حق أينما كان .

قبل العاصفة.

الغضب. قوة هادرة تفرزها صور كريهة مستفزة خادشه للكبرياء، تشوه الذات والقرار والكلمات، وتحكم عليك إن أطلقته بالنهاية.

سترتاح بداية، ولكنك آخرا ستندم، لأنك مع منطق الخسارة ستنتهي بكلام جارح، أبسطه لن يمحى لسنين آتية.

أما غضبي أنا، سيطر عليه العشق، الأمل في أن حبيبتي سترجع لي، وتنقضي نزوتها بين حضني والتغاضي عن محرم عظيم.

هان الغضب أمام هذا الأمل، وانتظر بحكمة محب لا حكيم.

كان الغريم يداوي جرحي، ويضع أعشابا تمتص سم الحية، ولكنه من حيث لا يدري وضع سما جبارا داخلي، فقتلت الغيرة وسمها العزاف روحي.

مضت ساعات بعد الفجر فانقضى، وصاد النهار وقتنا وصمتنا.

فكرت في قتله، ولكنني علمت أنني وصحبه الذين يأتونه، سيكون مآلي موتة ثأر.

نظرت له وهو يتناول غداءه، سائلا إياه بتعجرف وكبرياء:

-ما لي أرى صحبك يأتونك؟ هل ستغدرون بي؟ أم أنني أسيركم الآن؟ أم أن هناك ما تخفيه؟

تكلم بهدوء أزعجني وأتلف مخزوني من الصبر، وهو يأكل كسرته بجانب ناره الصغيرة، ودون أن يرفع عينيه إلي:

- لو أردت ذلك لجعلت سم الأفعى يسري في دمائك يا أربيل، وما بقيت معك ثلاثة أيام بلياليها.

ساءني ما قاله لكنني عقبت على كلامه قائلا:

-لا والله لو كنت ناظرا لقلبك لرأيت حقدك العربي المكنون، اليهود دون شيء هم قبلة شركم لا مناص، بل أظن وأغلب ظني أنك خائف أن أشي بك لعصبتي، ليأخذوا قلبك عبرة لكل من لمس نساءنا.

نظر لي نظرة غاضب، ولم ينطق ببنت شفة، ثم ذهب وتركني لا أعلم أين.

تركني وحيدا، تصطادني شر الأفكار، الموت لا أفكر فيه إلا وصورة أيالا ترتسم في خيالي، فأخال نفسي عصيا على الحياة.

فنويت عازما على عمل شيء ينقذها من نفسها قبل أي أحد آخر.

ثم حركت قدمي أنوي بها الرحيل، ولكنها كانت متورمة، ويستحيل علي التحرك في الغابة الجبلية بها.

وحالي حال ضعيف، لا يقوى على الحراك ولا المسير.

وأنا كذلك أموج في التفكير وغارق فيه، حتى أمست الشمس بين العصر والمغرب، وإذ بأيالا يتقدم خيالها نحوي، وتسترسل بخطواتها فيسري نبض سريع لفؤادي، هاجني الشوق نحوها وصرعه الغضب منها، فأصبحت أنأى عن النظر إليها. ولكن للحظات لتخونني عيناي عندما اقتربت، وبسمتها تشرق على روحي، فخبأت غضبي بين أساريري، ثم لمست جبيني وتفحصت قدمي وهي تقول:

- حمدا للرب على سلامتك يا أرييل، أظنك ستكون بخير وعافية.

صمت هنيهة قليلة، بعد أن تأكدت أن خليلا ليس بقريب، وكلمتها بنبرة غضب وعتب:

-أهان عليك أصلك يا أيالا لتتخذي المسلم خليلا؟!

أم أنني لا أجاريه رجولة وحبا لك؟ إنني أخاف وأكثر خوفي عليك، أرتعش من فكرة أنك سقطت في شركه وحبائله، واصطادك الملعون نكاية فينا وغدرا.

أخاف عليك يا أيالا، عشيرتنا إن سمعت بما جنيته وافتعلته، سوف يقتلونك عندها دون رأفة ولا شفقة فأضيع بعدك لا مناص.

كان الحزن في عينيها يزيدها سحرا، وتصبح جميلة كملاك غارق ولا حيلة له.

صمتت ولم تتكلم، لا شيء قالته سوى اقترابها مني لتقبل يدي، فأسمع خليلا يناديها بغضب وغيرة، لتبتعد خانعة مستسلمة له، فيزداد جنوني. وقررت أن أخرج من هذه المهزلة وإن كلفني بتر قدمي أو حياتي، فما أراه أمامي ما هو إلا ذلا لا يحتمله قلبي، وأصبح صدري به يضيق، عزمت على الرحيل وكنت أرى خليلا قد ألم به التعب والضيق، وعلمت من عينيه أن الليلة سيغلبه النعاس لا محالة، فقد سهر أياما بلياليها خوفا أن أكشف أمره وأمر أيالا، والذي لم يكن يعلمه أنه يستحيل علي فعل هذا، فخوفي عليها كان أكثر منه، ولكنني خططت أن أفكها من براثمه مهما كان المصير.

جاء الليل سريعا، وسريعا أيضا جهزت نفسي للهرب من أسره الذي غطاه بحسن صنيع وجميل. كان قد أوقد نارا، وراح بعربيته ينشد غناء عاشق مزقه الفراق، ولكن الذي مزقه كان أنا.

وهمت في أغنيته العاشقة والحزينة أيضا، كطفل جائع يلثم النهد، وتوغلت في فجيعة حبي منهكا من الطوفان، الذي أغرق بيديها عشقي وأملي.

نظر لي وهو يحرك بعصاه الجمر، وابتسم ابتسامة القوي للضعيف، فحرك داخلي حقدا كما حرك جمره ذاك وقال:

- أعرف سرك يا أرييل.

بادلته بسمته مستهزئا:

-عرفته! وكيف لا تعرفه يا خليل، وطعنة الغدر منها تهز جبلا.

-لا والله ما غدرت بك ولا بقومك، ولكنها أحبت وحبها كان أقوى من الأسباب كلها يا أرييل.

-أي أسباب؟! أي أسباب هي أقوى من الأصل والدم ؟! لقد خانتني وخانت كل شيء متعلق بها.

-لكنه النصيب وهذا ما سطره القدر لنا، والآن لا مناص، أيالا لي وأنا لها، لقد كابدت مشاعر جياشة وحاولت كثيرا أن أسلك طريقا غير طريقها، ولكنني مسير أمام عشقي لها لا مخيرا يا أرييل، لست من يهوى المغامرة ولا من يخطط لأذية مخلوق كأيالا، وليس لي قوم يفرحون بما قررته وتحملت تبعاته مهما كانت، لي قوم لن يرضوا عن فعلتي، ولي قضية ستتشابك وتتعقد حولي

الأقاويل الكثيرة وتدينني، ولكننا أمام عظمة الحب لن نقرر غير ما يرضيه يا أرييل.

كظمت الغيظ فنالني ذبح، يجزئ شراييني قطعا صغيرة، فكان الصبر كالطوفان، فالعربي المسلم يغتصب حقي، اقتنص كرامتي وأكلها بزهو وفخر.

لا رحمة لك يا خليل، لن أرحم حتى الشجر والعشب الذي يحيط بأهلك، وسأحرقهم كالنار التي تحرقني مثل الهشيم.

عقدت العزم على المضي عند نومه، ولكنه كان ماكرا أكثر مني، لأن النعاس غلبني قبله وقد حسب حسابا كنت أحسبه غافلا عنه.

لقد دس لي منوما في مشروب الأعشاب ذاك، لينام مرتاح البال، ولكن بدأت الأقدار ترسم طرقها وعلاماتها تظهر كالشمس الساطعة.

العاصفة.

الهاجاناه.

لاحت الشمس على وجهي، فاستشاط حرا وبين اليقظة والمنام، سمعت كلاما عبريا فكان ولابد أنهم قومي وأهل عقيدتي.

بدأت أستفيق، لأرى خليلا مكبلا، أما أنا فقد استدار حولي جماعة من الملثمين يحاولون أن يعرفوا حقيقتي ليقرروا مصيري.

استأنفت الكلام فورا، وأخبرتهم أن حية لدغتني فأنقذني الذي أمامهم، حجبت كرهي وحقدي لغاية في نفسي، ولكن للأحداث سيرورة مختلفة، ورغم مشيئتنا فنحن أرياش صغيرة في مهب عاصفتها.

لا تكترث بمسيرنا وتصادمنا واشتباكاتنا، علينا أن نكافح وأن نقاوم تيارها وأن نحلم بغير هوادرها وصعابها.

ولكنها آزفة، تحطم أشرعة زوارقنا فتتكسر على أمواجها العنيفة، ومن يستطيع النجاة فيها ومنها؟ سيكون فقط ذلك الذي حالفه قدر وعزيمة لا غير.

ذلك الوقت بدأت منظمة الهاجاناه تصبح قوة منظمة وصاعقة، انضم لها عشرات الآلاف من الشباب اليهودي بما فيها المتطوعون، كانت مدعومة في الخفاء من الجيش البريطاني المنتدب على فلسطين والكثير من أصدقائنا، ولكن دون أن تعترف الحكومة البريطانية بمنظمة الهاجاناه، فتم تنظيمها وتدريبها من الأصدقاء والضباط البريطانيين أمثال الصديق والحليف الوفي، الضابط البريطاني "ونجت"

عندما تم اعتقال خليل كان ذلك من طرف الهاجاناه، وكان حظه عاثرا معهم، فتلك المنظمة لن ترحم فلسطينيا واحدا.

اعتقلوه بمشقة وأخذت معه أيضا، رغم أنني منهم ومعهم، ولكنهم لن يتركوا ثغرة دون التحقق منها، ربما ارتابوا من كلامي ولهجتي التي تدعم خليلا، لهذا أخذوني مأخذ زمرته.

مشى مربوط اليدين وأنا معه خلف أحد أحصنتهم، وسرنا نحو ساعتنا التي حانت ربما، نشق طرقا وعرة وأخرى للمسير، في غابات ومنحدرات وجبال.

وكنت لا زلت ضعيفا ممزقا أطرح على بالي ألف سؤال، وأفكر في ألف طريقة، للخروج بهذا الفتى من قبضة الهاجاناه التي لا ترحم، ارتبت من نفسي، أصبت بالعجب منها، فما أمرها وحالها؟!

ما الذي أصابها لتشفق عليه؟!

ربما.. ربما عظمة الحب، التي تحول الغريم صديقا، ليس لأنه أنقذ حياتي لا..ولكنه كان الحبيب الذي سيفطر موته قلب أيالا، سيقتلها ويصيبني بالموت كل يوم لرؤية دمعاتها.

أو أن هذا هو التفسير السريع، الذي وجدته أمامي لأقنع عقلي المضطرب.

كنت ضعيفا وانقسمت على نفسي، تحولت من صهيوني غاضب، ليهودي أحمق أفكر فيه، في مصير غريم ومسلم وفلسطيني سرق حب حياتي ببساطة.

لكنه كان شعورا قويا، لم أستطع فيه إلا الإذعان له والانقياد لكلماته الوقحة على فكري ومبادئي.

تجلدت. وبعزم عرفت أنني سأخلط أوراق حياتي، وسأصبح منهمكا في انقاذ شخص وددت حرق كل شيء يحيطه، سأصبح الآن أدفع ثمن خطيئة أيالا غاليا لدرجة أنهكتني واستنزفت حتى خيالي.

جلس الأفراد الأربعون للهاجاناه، كانوا فتيانا وفتيات وشبابا، وقائدهم يدعى إسرائيل يزيف، شاب مخضرم ذكي حكيم اللسان، يمتلك عيني نسر ومخالبه أيضا.

كان في الثالثة والعشرين وكنت في السادسة عشر.

بعد وصولنا ومكوثنا في واد ذي أشجار كثيفة، أشعل فتيان الهاجاناه نارا، وعمد بعضهم من فتياتهم لتنظيف الدجاج المذبوح والمسروق من قرى الفلسطينية لشويه على النار، كان خليل يجلس قربي وكان مقيد اليدين ولكنه يملك شموخ الجبل الحجري، صامت كليث ينظر لطرائده، تحسه جبارا متكبرا عنيدا وللأسف شجاعا.

تبسم لي نفس الابتسامة التي كانت على محياه عندما كنت أسيره، كأنه لا زال في نفس المكان والزمان، لم يمسه الخوف ولم يقترب منه، وهو يعلم أن الهاجاناه ستقتله باستمتاع.

تكلمت بعد اقترابي منه بصوت خافت قائلا:

-لا بد أن الحمق يسري في دمائك يا خليل، لا زلت لا تخاف عواقب الأهوال أبدا.

سرقت جوهرتنا دون وجل، والآن لا تخاف الموت كما أراك .

علك لا تعرف مدى حمقك يا فتى؟! والرب أراك قد جنيت على نفسك ولا تعلم.

بقي صامتا ما يربو من الزمن دقائق معدودة وهو يناظرني ثم تكلم:

-أرييل. الآن صدقت مدى حبك لزوجتي.

وهنا أصابني ألف سهم، في جهة الجرح نفسها، بل وعلى الجراح بذاتها، أحسست بالغثيان وبمرارة وجفاف حلقي، وبدأت أفقد وعيي، تلك اللحظة انحنيت أمام ضعفي، وأصبحت أضعف منه، أيها الرب الذي في السماء إنني ما عدت أريد الصراع والكفاح في أرضك، ما عدت أستطيع سم أيالا ولا أقدره.

الضياع... الضياع في لغة العشاق مدمر، يفقدنا العزيمة والأمل والرغبة في الوجود.

نصبح كالدمامل على الوجوه الجميلة، نشوهها فتصبح مقرفة ومنبوذة.

حلم الحياة، وسبب الرغبة فيه، دنسه العربي المسلم بلمساته ولعابه وأشياء جسده الكريهة على مقدستي أيالا، والتي لطالما تملكتها دون وثيقة ولا دستور ولا رأي منها.

أصبحت فاتنتي مدنسة بعار، لن تغفره دماؤنا ولا دماؤها اليهودية العابرة جسدها، وستصبح ملعونة لديهم وخارج سربهم للأبد.

كلماته الحقيقية والحقيرة معذبة ومستنزفة، امتصت حلاوة الحياة من فتوتي، فأنبت مدحورا مذلول.

تلك الليلة لم أنم كان قلبي يبكي، وكان هو يحمل روحا شامخة، استفزت كل عصب في دماغي فأصابني بعصبية شديدة، زادتها غصة في فؤادي وتعب في روحي.

وانهزمت كقطعة من جليد، في كلمة حارقة منه انهزمت..

كنت أظنه حبا ونزوة سيخلوان لحال سبيليهما، فإذا بهما كانا رابط مقدس بينهما والحب جعلهما صامدين كجبل.

وفي الفجر، و قبل التحرك صباحا، أمر إسرائيل يزيف جنوده فاستقدموني إليه، كان يلتهم سيجارته التهاما، أعطاني واحدة وكم كنت راغبا فيها فالتهمتها، وساق لي الثانية والثالثة في بضع دقائق صغيرات.

نظر لي بدهاء وسألني:

-أرييل آشر. أنت وخليل الدرة من قرية عين كارم؟

أجبته بصوت تعب ومنهك وحزين:

- أجل كلانا من عين كارم.

صمت كأنه ينتظر مني المزيد، إلا أن رغبة الكلام دفنت في أعماق هذا الكيان الضئيل ورحت أسرح في عالم آخر.

وعندما تأكد أن إجابتي مقتضبة، عاود سؤالي:

-لقد قررنا اعدامه قبل الرحيل، ونحن مضطرون لذلك، فإن كان صديقك فودعه...

تكلم بجملته تلك، وأنا أفكر في لذة رؤية قتله وقبلها اذلاله، وبين رغبتي في أخذ الثأر منه بكل جوانب الثأر، وبين حزن أيالا الذي سيعذبني أكثر منها، والأهم كانت هزيمتي التي لن تنتهي بموت خليل وهو منتصر علي.

عندها وازنت الخسائر والغنائم، واهتديت لحيلتين أولهما ستبقى سرا وأعرف أنني سأبوح به إليكم بين سطوري ومشاعري، والأخرى سأفشيها لكم وأمامكم الآن:

-سيدي إسرائيل، خليل الدرة ذاك، هو معين لنا ضد قومه من العرب والمسلمين، وسوف أقنعه أن يكون جاسوسا لدينا لنستفيد منه حيا لا ميتا.

محا سيجارته على صحن صغير، ومشى خطوتين نحوي، واقترب من عيني جيدا يناظرني، حدقت فيه دون وجل، أحسست كما أحس هو أنني أفوقه دهاء.

في لحظة أحسست أيضا بخواطره، كأنه اشتم عظيما سيولد كجلاد، كسفاح من نوع آخر، يبلل جفاف العقول بسيول الحيلة والخبث.

تبسم، ووضع يديه خلفه، وتراجع كالأفعى التي أنهت لدغها.

ثم استدار لي وقال:

-إن فعلتها سأحميك، وأدعمك وأصل بخبرك لقيادة الهاجاناه. فاطلب ما تريده يا أرييل، ولكن ان أخفقت سآخذ روحك وروحه، وأسلب منك موتة اليهودي الفلاح، لأجعلها موتته الخائن الحقير.

بلعت ريقي بحذر، وقد كان صوت حذرا أيضا، فإسرائيل يشم رائحة الخوف من بعد ميل.

ما الذي فعلته بنفسي؟ حيلة نسبة فشلها مؤكدة، فخليل متأصل في قومه وعقيدته، وليس شابا غبيا ولا خائنا ولا يشترى بالمال أيضا، ولكن هناك نقطة ضعف نتشارك فيها أنا وهو كأبلهين، إنها المرأة نفسها التي أحببناها إنها أيالا، والآن هي زوجته والنقطة أصبحت أعمق وأكبر، كان يظن أنه سيغيظني بسره وينتهي الأمر، ولكن بعض الأسرار ستنهي صاحبها للأبد.

فيا للقدر ومشيئته! فيا أيها الرب الذي في السماء، أنت الذي تدبر بحكمتك حياتنا بنظام عجيب.

هززت رأسي موافقا لما يريده، وأصبح انتقامي وثأري، تغيير عقله وتدويره كقطعة نرد محكوم عليها بأن تكون بين أصابعي مهما كانت النتيجة.

أخذ الهاجان إسرائيل يزيف بعض العنب في يديه، وأخذ يأكله واحدة وراء الأخرى وهو يناظرني ثم قال:

-ما الذي تريده الآن يا أرييل؟

-أريدك أن تتركني معه وبجانبنا إحدى الخيول، واجعل الحراس لا يتكلفون عبئا كبيرا في ملاحقتنا.

ابتسم بمكر، وقد بزق بذور العنب من فمه وقال:

-أشتم رائحة دهاء استراتيجي في عقلك، ستكون شجرة عملاقة على أرضنا يا أرييل، فلا تخيب ظني بك أبدا، دولتنا تحتاج لكل يد تعيلها ولن ينفعنا عدو نقتله، بقدر عدو نحوله، كن عمودا لا عودا، وسأراقبك يا أرييل ستكون محور حياتي.

عقول أخرى.

هذا العالم صغير، لا شيء أمام عقولنا يجعله فسيحا، نحن نختصره دائما.

مجتمعاتنا تجعله صورا مصغرة عن كل سكان الأرض، فالإجرام يتشابه ويتوافق مع تلك العقول المنبسطة والمنفتحة عليه.

والخير والمبادئ لا تعرف غير لغتها، مهما تكلم أصحابها بلهجات وألسنة مختلفة.

الخير خير، والشر شر، ولا تختلف فيه غير الشخصيات، بينما عقولهم هي العقول نفسها.

فتوتي التي تجعلني أصغر من خليل بأربع سنوات، لا تتأثر بتشابه عقولنا، رغم تضادها فأنا وهو وجهان لعملة واحدة ولكن لجهتين مختلفتين، كأن أيالا استبدلتني بقطعة تشبهني، ولكن لم هو؟

وما قصته معها؟! وكيف أسقطها في شركه وحبائله؟!

كيف استطاعت معه ارتكاب جرم كهذا؟ وحب كهذا؟ دون خبر مني، وأنا الذي كنت أتلصص على كل نفس من أنفاسها، هل هي ساحرة لتنفذ كنسمة من عشقي وتملكي وغضبي؟ أم هو ساحر وشيطان؟!

وأنا أهرب من الهاجاناه ممسكا به فوق الحصان، أحسست نفسي شخصا مختلا، لا يقف شيء مستحيل وغريب في طريقه.

وقبل هذا الهرب المجنون، كنت قد رجعت إلى حيث مكاني، ليبدأ الصباح ينهش ليلنا الغريب، وبعد مدة اقتربت من خليل هامسا له، بعد أن انشغل الحارسان اللذان كانا أربعة بالحديث.

كان خليل قد لاحظ أن الحصان فك رباطه، كما فك رباطي، ورأيت في عينيه كأنه يفكر فيما أريده أن يفكر فيه، هامسته قائلا:

-سأفك رباطك ولكن بالمقابل، أريد الهرب معك.

نظر لي وهز رأسه هزة خفيفة وماكرة .

على إثرها فككت وثاقه، واتكأت على كتفه وركبت الحصان ولكنه قال لي:

-لا تتحرك، سآتي قريبا وإن أمسكوني فاهرب وحدك.

شهم هذا الخليل، وشهامته تربكني، تحلل تفكيري نحو ذاتي، فأنا خادعه وهو منقذ لي.

وفي لحظات ركب أمامي، وانطلق كالريح تاركا ضوضاء وراءه، وصهيلا غريبا للأحصنة، بعد أن جرح أقدامها لكي لا تعدو.

كنت أنتظر لحاق الهاجاناه بنا، ليكتمل مشهد الهرب ذاك ولكن الغريب أن لا أحدا فعل ذلك، وانتابتني شكوك كثيرة، وربما اعتقدت أن اسرائيل يزيف، غبي ليخطو خطوة كهذه، لم أطرح الأسئلة حتى أخبرني خليل بما فعله بأقدام الخيل عندما رآني ألتفت ورائي كثيرا.

وقبل أن نصل للقدس، حرر الحصان نحو الجبال وحيدا، وذهبنا نحن مشيا إلى مقصده الذي لا أعلم عنه شيئا.

ووصلنا بعدها لحارة باب حطة في القدس.

ودون نطق كلمة واحدة منه، رغم أنني لم أحبذ صمته، لأنه سيكون دون هوية بالنسبة لي.

الثرثرة تريك عقل الانسان ومضمونه، تكشف لك عن خطواته وحقيقة عقله.

أما هو كان صامتا أغلب الوقت، يمتلك شخصية مزهرة في جميع الفصول، حذق متريث صبور وغامض ومزعج وملتو. صادق شجاع، أخاذ إلى أبعد من ذلك، كأن له سحرا ما أو تعويذة جارفة.

وهذا قهرني، فرجولته في شخصيته مكتملة، ونقطة ضعفه غامضة، وصرت أشكك في كل تصرفاته وأولها غرضه و حبه لأيالا، جعلني صمته لا أعرف بابه ولا كيف أدخل إليه.

عقله عقل آخر، ليس عاديا هذا الغريب، يمتلك سطوة ما... قوة ما...غموضا مريبا لتصيبني الغيرة منه، والدهشة أيضا، دخلنا مشيا من حارة باب حطة لحارة النصارى.

وهي حارة، يعيش فيها النصارى والمسلمون على حد السواء بكل محبة هناك، كانت تمتد من درج باب خان الزيت وسط السوق وحتى مشارف باب الخليل غربه، أما جهة الجنوب فكانت تمتد حتى سويقة علون .

الحارة بهية، تستلقي داخلها أرواح مختلفة ومتشعبة، تحس بعالم ينفتح على السماء فيه، وزخم يأخذك لرهبة من الإحساس.

دق الباب مرتين ثم توقف. ودق مرتين أخرى وبعدها دقة وحيدة كأنها إشارة ما، فخرجت له امرأة في الثلاثين بديعة الجمال، ابتسمت له فحرك رأسه حركة القبول كأنه السلطان، يغيظني هذا الخليل ويصيبني بنوع من العجز والصغر أمامه، فيتكدس الحقد

والإعجاب ليصبح خليطا، ذا كتلة تقمع الجاذبية نفسها، فتجعلني ثقيل الخطى عديم التوازن.

فتحت الباب له فالتفت لي قائلا:

- اتبعني يا فتى.

يا فتى! ...يا فتى! إنه بلائي وسوء طالعي يوم التقيت به، إنه الشؤم بذاته وطريقي الذي اخترت السير فيه.

دخلت معه غاضبا حاقدا عليه، مرتعبا من نتائج قراراتي واختياراتي.

دخلنا منزلا على طراز دمشقي، دخلنا صحن البيت العتيق، والنارنج والنافورة الرقراقة، تلخص الجمال الهندسي الشامي الأخاذ، واذ بأيالا تخرج مسرعة محتضنة هذا الخليل، ليصدر نحنحة تجعلها تقفز مقبلة يديه، لأصيح دون أن أشعر ناهيا إياها، وأصبحت جلادا أريد جلد هذه الخيانة الآزفة، لقد دنت منه وحطمتني، يهودية تتذلل لمسلم فأصاب بالقهر، أي حب هذا ليقهرني بجنون؟ أي جنون هذا لأغدو بين غريم وحبيبة كذلول؟

أنا أرييل آشر، ولست صعلوكا يتطلع لفتات من الغرام، سأقتلك يا أيالا لأشفي صراعا مكلوما بحبك.

اقتربت منها كمجنون. كليث مطعون ويتهادى بين الموت والحياة، أمسكتها من معصمها واجتذبتها نحوي وكلمتها بنبرة مشتعلة كالجمر:

-إن لم أقتلك يا أيالا لما اقترفه جسدك البغي، سيقتلك جدك دانييل الذي أحبك رغم لعنتك على الجميع.. والرب. أنت ملعونة ستقتلين عشيرتك دون أسف.

لم أحس إلا بقبضة على معصمي، كانت نارا لا لحما، فتركت يدى أيالا لشدة ألمي، وإذ به خليل يجذبني إليه ويتكلم أخيرا. كشعلة شهب محترقة نازلة على ناري الأخرى:

-إن اقترب منها أحد سأحرق الحجر والشجر والبشر، وأجعل من رمادكم جميعا فوق روث أنعامنا يا أرييل. وإن لمست زوجتي مجددا، سأقتلع كل عضو فيك بأسناني.

ثم رمى يدي كأنها القمامة، ليتعرى غرامه أمامي وتنبلج غيرته القاتلة، أحسست جنون غرامه وغيرته تعمي بصيرته.

عرفت أنه كمثلي مصاب بلعنة أيالا، ولن تتركه حيا وإن كان حيا.

خرجت في تلك الأثناء تلك الجميلة، كانت شابة قتل زوجها أفراد البلماخ، والبلماخ فصيلة في منظمة الهاجاناه، كانت مختصرا للعبارة العبرية "فلجوت ماحتس" أي سرايا الصاعقة، وهي القوة الضاربة والمحركة و الصاعقة فيها ولها.

كان مسلما يدعى عز الدرة وهو عم لخليل، وهي تكون من النصارى تدعى ماريا الدرة، نذرت حياتها لخدمة كل فلسطيني، لأدخل بيدهم لأحد شراييهم، حقدت عليها في ذلك الوقت، كما حقدت على كل يد تخرب حلمنا في وطن مزعوم رسمناه خيالا حاقدا، وقد كنت أظنه يجمع شتات شعب الله المختار ولكن.

في تلك الأثناء، نما شيء آخر، كان محتجبا علي، ربما كان ينتظر حقدا لعينا، ينول بي لهذه الهاوية والرغبة الجامحة في امتلاك الجحيم.

فكانت ماريا الدرة، أول ضحية استمتعت بها في جحيمي، وأصبحت اللذة الأولى لي.

التحول الأخير.

أيلول1947 حارة النصارى بيت ماريا الدرة.

إنني أعاني، تنقسم ذاتي الآن، أحيانا أحس أن قوى الشر سكنتني، وأحيانا أخرى أرى أن العالم قد يكون في قبضة يدي، أرى نفسي بعظمة رهيبة وكأنني أملك قوى خارقة، وفي لحظة تكون إنسانيتي هرمة وبشعة أمام جبروت وعملقة شري ورغباتي الجامحة.

أردت الكثير. وأنا أرى أيالا تعبد خليلا حبا، أصبح بعدها منحدرا من التشوه والقبح والغضب والانكسار.

وبدأت أحس ببطء الوقت، أحسست أن قلبي يتحجر، عقلي يتشرذم، ما عدت أرييل المحب، تحولت شهابا يسقط على كل من يعترضني فيتحول دمارا، كرهت النساء، كرهت كل امرأة تمشي على الأرض، أو حتى مدفونة فيها.

غيرتي ورغبتي المكبوتة، أصبحت عقدة قاضية وفاصلة في حياتي.

ليتني استطعت البكاء، ليتني فعلت ذلك، لربما أصبحت إنسانا ولكنني ما عدت كذلك.

ماريا الدرة تبدو محبوبة وقوية، أراها فأرى شهوة تقطع جسدها وتمزق ثيابها فأرى تفاصيلها.

أرى أيالا فيها، أستطيع أن أمزق أيالا فيها، أستطيع أن أصرخ في وجهها وأقول لها أعشقك وأكرهك.

وبدأت.

اختفت أيالا الحقيقية واختفى خليل، وبدأت هوة الغضب والغيرة والألم والحقد تنمو مركزة طاقتها على ماريا، بدأت أشتهيها بسادية، أراقبها وأخطط لاقتلاع عينيها الخضراوين بيدي، كأنني أقتلع عيني أيالا التي رأت غيري، أريد أن أقسم أطرافها بعد اغتصابها وقتلها ببطء، كما عذبتني أيالا سأعذب ماريا.

بت ليالي أخطط وأرسم، كيف أضعها في الفراش ودون مقاومة منها أقتلع ثمرتها، أغتصبها وأنزع حقي في أيالا من جسدها.

أقمت ثلاثة أيام لم أنم ليلة واحدة فيها، وبنيت خطتي ورسمتها وعقدت العزم للثأر بطريقتي أنا.

وفي اليوم الثالث منذ قدومنا، كان خليل سيأخذ أيالا ويرحل، تركته كنت أعرف أنني سأجده مرة أخرى،

تعافت قدمي، بت أستطيع المشي وإن لم يكن لمسافات طويلة، وعندما دخل خليل هو وأيالا وابتعدا، نظرت لماريا ببراءة قائلا:

-يجب أن تغيري مكانك يا ماريا، أنا وكما تعلمين صرت مطلوبا من الهاجاناه، وإن كنت تريدين تعالي لقريتي سيحمونك، ردا لصنيعك الطيب معي.

ابتسمت ببراءة وقالت:

-غدا بعد الغروب سأرحل لا تقلق يا عزيزي.

وعرفت بعد كلماتها الأخيرة الآن طريقها، وعندما هممت بالرحيل ناديت أيالا وخليل مودعا، لكنه كان يمتلك خطة أخرى لي معه.

لقد ابتسم ابتسامته الملكية الديكتاتورية المصابة بالغرور، كأنه يعرف خطتي، ويسبقني بخطواته دائما، خبيث وذكي، غريم يفهم عقلي كأنه انعكاسه في الجهة الأخرى من المرآة.

ومعه أصاب بالفشل والتلف، وأصبح صغيرا أمامه بكثير.

نظر لحبيبتي بعينيه فانصرفت، أصبحا يتكلمان بطرفيهما الآن، يفهمان بعضهما دون كلام، مرحلة ومستوى من الحب يجعلني مقوس الإرادة، وقريبا سيكون لي نبال وسهام.

اقترب مني وتلك الابتسامة على محياه قائلا بغرور:

-أرييل..أرييل يا عزيزي صديقك اليوم، ربما سيكون في يوم آخر عدوك، وعدوك اليوم. ربما سيكون يوما ما صديقك.

ستذهب معنا يا عزيزي، سترجع للقرية وتخبر الجميع بزواجي من أيالا.

قاطعته مرتعبا:

-سيقتلونها يا خليل ولن يحتمل جدي دانييل خطيئتها.

-بل ستفعل وستخبر أهلي أيضا.

-إذن ستشعلها حربا بينهما وسيقتتلان، كأنك تريدني أن أشعل الحرب؟ وما مصلحتك؟!

-مصلحتي! أن يفهم الجميع أن الحب أقوى من الأديان والعقائد والعنصرية.

-إذن سأخبرهم. سأتشرف بهذا الحب الذي سيوحد اليهود والمسلمين.

-هل تستهزئ يا أرييل؟.

-أجل. وبكل تأكيد، فمخيلتك إن كنت تتخيل هذا ستكون خيالات مريضة، وإن كنت تلعب لعبة أخرى فلن أكذبك قولا، سألعب معك كما تريد ولكنها ستكون ألعابا قاتلة، دعني أذهب يا خليل، فالآن أصبحت مطلوبا من الهاجاناه، وبت خائنا كابنة خالتي أيالا.

-اذهب، ولكن ليس الآن ستجد الباب مفتوحا بعد رحيلنا، ستبقى هنا حتى نرحل جميعا.

صمت، أستجمع خطوطا وأهندسها، لأبني مسرحا يليق بالملحمة، لا بأس فليذهب الجميع، ففي النهاية سنلتقي جميعا على المسرح نفسه ، وسنلتقي على الزوايا والخطوط نفسها ، ستكون النهاية كما أريدها أنا وأقسم بهذا.

خرجت أيالا رفقة خليل وماريا، ولا بد أنه أقنعها بضرورة الرحيل إلى وجهة لا أعلمها، بقيت أنظر لأيالا الحبيبة الخائنة لحبي ولقومها، هذه الحقيقة ولكنها بالنسبة لي، منزهة عن الخطايا لا زالت صورتها كما هي نقية وساذجة، قوية وفاتنة.

لم أستطع تلويثها رغم أنها في عرفنا مخطئة وبغي وخارجة عن ملتنا، لكنني كنت أراها طهرا ولا مناص لي من هذا فهذا هو ناموس العشق.

استدارت لي بعد أن وصلت للباب ثم توقفت، نظر خليل لها ولكنه تركها، فتقدمت نحوي تذرف دمعا أصابني بالانهيار، أمسكت يدي وقبلتها وقالت:

-أشتاق لأيامنا يا أرييل، أين كنت أجري خلفك وأنت ترمي العالم بصوت ضحكاتك وسعادتك، كنت أحس في ذلك الوقت،

أنني سببها فيغمرني الفرح، الآن أحس أنني لعنة كما تقول خالتي، وأنني أقتل كل من يقترب مني، لا أعرف ما أستطيع قوله! لا أملك الجرأة لأستمر في الكلام، ولكن ما أنا فيه أقوى مني بكثير...بكثير

أمسكت يدها بقوة، ونظرت في عينيها بصبر ضائع، وحلم منكسر، وكلام مرتعش خوفا على ضياعها مني إلى الأبد.

مجرد الشعور بذلك يجعلني خاويا ومشوها ومجردا من أي رغبة لي في هذه الحياة، فهل ينفع الصبر مع العشاق؟ هل ينفع الزمن الطويل في انتظارهم؟ أم أن الحب الذي من طرف واحد لا صبر يفيده ولا انتظار.

أجبتها وظلم العذاب يتخطى زمن أحرفي وكلماتي ثم مشاعري، كان يسبق عصر وجودي وكينونتي على هذه الأرض، فيا أسفي على نفسي وشوقي:

-لا يوجد ما هو أقوى من حبك لقومك وعشيرتك، سأخلصك يا أيالا. سترجعين إلى أحضاننا، تأكدي أنني لن أتركك بين يديه.

صمتت قليلا وهي تناظرني بعينيها البحريتين، فناداها خليل بنبرة محترق يصول ويجول داخله عشق مهموم، ولكنه بنظراته يحوم حوله كنسر محلق صوب شمسه المحرقة والوحيدة، نظرت له ثم قالت لي:

-لا أعرف العيش دونه أبدا ..لا أعرف

صمت قليلا إلى غاية وصولها للباب، وعندما عرفت أن رحيلها مؤكد، نذرت حينها نذرا على نفسي، وقد قلته لخليل بصوتي الضارب نحو القهر مقسما له برب موسى وهارون:

-سترجع لي. أقسم لك يا خليل.

ثم رحلت، تركتني بعد أن أصابتني في مقتل، وجردتني من إنسانيتي إلى الأبد.

ربما أنتم لا تعرفون معنى وماهية هذا الشعور، بالضبط يشبه أن تقف مصلوبا، تنهش جسدك ألاف المسامير، وهي تثبت ألمك بشكل متقن ومدمر.

أصبحت مصلوبا نحو المنطق الآخر، الذي حولني لجهة أخرى وبألم فظيع، ليختفي كل شاهد على معنى السعادة والشعور والإنسانية داخلي.

تفننت أيالا في اختيار غريمي، وتصدرت كل اختياراتها ودمرتني، لأنبعث من الرماد تنينا مظلما وعفريتا.

ثم خرج الجميع، وأيضا ماريا الجميلة التي خططت لانتزاع روحها، بت وحيدا أئن كجريح في آخر لحظاته، ودنوت من الموت لأستفزه فيحولني بعدها لسفاح، لإنسان يصنع الموت أينما حل وكان.

أنا الجريء.

بعد شهرين تشرين الأول 1947.
البلماخ

البلماخ تأسست لتكون قلبا نابضا وعقلا عبقريا وشيطانيا ودماغا مفكرا ليد مدمرة وحاقدة، وجوهرا تهمه الوسيلة لنسوغ عليها غاياتنا لقيامة كيان موهوم، وكان كل هذا لأجل الوطن الذي كنت أظنه، ولأجل شعب الله المختار الذي توهمته.

في البداية تأسست البلماخ لتكون القوة المجندة للهاجاناه، والتي صنفت نفسها بأنها الجيش العبري التابع للدولة الصهيونية التي كانت في الطريق قبل عام **1948** قررنا أننا سنعيد بناء الهيكل، وحكم الأرض وإعلاء كلمتنا فوق الجميع والكل في ذلك الوقت.

كنا نصطاد كل شيء، نصطاد الأرواح و الأشخاص والكيانات والمال والقادة والعقول، لا شيء ليس من نطاقنا وتخصصنا.

تعلمنا الزراعة وأحببنا الفأس، تعلمنا الرماية وأحببنا السلاح، تعلمنا القتال وأحببنا القتل، ووجها لوجه.

لقد تمرنا أيضا على نقل المهاجرين اليهود من الجزر بزوارقنا بكل سرية وعزيمة لغاية الأراضي الفلسطينية.

بدأنا نزداد نكبر، نحيط بكل مكان في فلسطين، وعندما بدأ البريطانيون بشن سحب كامل على الهاجاناه، بدأنا نحن نعوض النقص، فأتقنا كل شيء بل تفوقنا على البريطانيين أنفسهم.

ثم انقلب السحر على الساحر، كان الجيش البريطاني يدا لنا في الخفاء، وبعدها أصبحنا نحن من نقاوم سلطة الانتداب في

فلسطين، كنا نضرب ونختفي نجعلهم في بؤس من الأسئلة، من يقتلنا؟! ومن يصطادنا ؟! بل من يشتت بقاءنا؟!

بعد خروجي الشبه هزيم من بيت ماريا، وفشلي الذي لن يطول كثيرا في القضاء على روحها، مشيت بين حارات القدس أفكر، ما الذي سيجعلني أنتصر؟

إنني أريده بشدة بقوة، أرغب أن يطالني الانتصار، لأقتلع هذا الشعور، الذي يفتتني لشظايا متجعدة لا تعرف سبيلا لتستقر.

ثم. في لحظة سحرية أو قدرية، تذكرت إسرائيل يزيف، وكل ما أعرفه الآن، أنني غارق في متاهة شعور مؤلم ومدمر، وأن الغارقين يتشبثون بقشة لن تزيدهم إلا غرقا.

لتأخذني خطاي، إلى حيث لا أدري، راجعا إلى قرية عين كارم أبحث عن بداية ما..

كنت أعاني من ألم فظيع، أقسى من كل الجراح الحقيقية، صرت أتنفس بصعوبة وأصارع إن كنت راغبا فيه أم لا.

ولكن..

أن تبحث عن الانتصار وترغب فيه، لتستطيع أن تنتقم، سيصبح الأمر كأخذك لمنشط ما، أو تعويذة سحرية قوية ومتقنة، قد نفذت داخل الدم وأصبحت جزءا منك.

في لحظة..

رأيت شابين يمشيان كأنهما أخوان، كانا يبدوان من إحدى القرى المجاورة، على حسب ما رأيته من الحمار والزاد والأشياء المحمولة عليه.

وفجأة. وكلانا يقترب، خرج من الأحراش عشرون من البلماخ، ليمزقوهما أشد تمزيق، فأخذوا زادهما وأشياء أخرى كانت مخبأة بين الأحمال والأثقال، والذي كنت أراه وهم يفتشون الزاد وحمل الحمار، كان مجموعة من السلاح والرصاص، فأحسست بنشوة ما، حمله انتصارنا عليهم بالرغم أننا كنا عصبة على اثنين، وعندما اقتربت لاح من القريب جمع أيضا، وأظنه قد جاء بعد أن جاءه خبرهما من أحد كان يتبع العربيين، حتى بدأ في لمح البصر، تشابك بكل شيء من الحجر للعصي للرصاص للسلاح الأبيض وكنت في وسط جمعهما، وفجأة لمحت اسرائيل يزيف، في جمع البلماخ الذي يقاتل، وفي المقابل خليل في جمع لكتيبة عبد القادر الحسيني، وعندها دارت في ذهني ألف فكرة، ولاحت فرص لو أحكيها لكم، ستأخذ منا مأخذا طويلا.

كنت مراقبا أتحين فرصة وحيدة، وإذا بخليل يقترب من إسرائيل لأنه عرفه، وأراد بكل قوته القضاء عليه، حتى أسرعت نحوهما بعد أن جرح خليل ذراع إسرائيل بسكينه ليختل توازنه، وعندما هم بقتله، أمسكت ذراعه وحولت القتال الذي كان مع إسرائيل يزيف إلي.

نظر ملتفتا نحوي مندهشا، ثم بغضب استدار لي وتمعن في يديّ، وعندما لم يجد سلاحا فيهما، تلمس قدمه وأخرج خنجرا ورماه ذلك الشهم الذي أمقته نحوي قائلا:

-عرفت أننا سنتقاتل يوما ما كرجال يا أرييل.. ولكنني لم أظن أنه كان يوما قريبا كهذا.

ابتسم كعادته بعلو، فتمرغ كل من الانتقام والغضب في جوفي، وأصبحت ذئبا يعوي بصوت داخلي.

ونحن ندور بين بعضنا، نتحين فرصة الهجوم، اذ بالبريطانيين يقتربون منا، ولم يكن من مصلحة أحد فينا أن يصبح أسيرا عندهم، حينها بدأ الجميع في الانسحاب، بما فيهم خليل وإسرائيل يزيف.

ولكنني نظرت للرصاص والذخيرة التي كانت ملقاة على الأرض، وإذ بخليل يحمل إحداها، وعندما هم لأخذ الثانية حينها أخذت مسدس إسرائيل، واقتربت من خليل ومن الذخيرة ممسكا إياها قائلا لخليل:

-تنحَ جانبا يا صديقي، وإلا صرعتك الآن. هذه لي والأخرى أيضا.

نظر غاضبا فأمسكه صاحبه بسرعة، من يده وجره نحو انسحابهم جرا.

أخذت غنيمتي ووضعتها على الحمار، ولحقت البلماخ بكل ما جادت به قوتي.

أصبحت جريئا، دونما سابق إنذار، تحولت بعمق من فلاح في حقول جدي دانييل وعاشقا لابنة العم أيالا، لمحارب لا يأبه من العالم بشيء.

أنا الجريء، الذي حولتني الخيبة لمقاتل يريد الثأر والانتصار، يريد أن يربح ويستعيد حبا مهجورا ومنبوذا ومستحيلا.

موت على طريقة كارمينا بورانا.

بعد شهر.

تشرين الثاني 1947

العالم يستيقظ، لكنه في داخلي يصبح جحيما، الثأر والغضب والكره والخيبة هوة سوداء، تجيش بخاطري مستنقعا من الوهم.

أصبحت مهووسا، لا تنفك حيلتي عن الدوران، تدور وتدور، على ألف نقطة في ثانية واحدة.

أصبت بالشيخوخة المبكرة، وجهي وجه فتى، روحي روح عجوز وقد كان شيخا مات ورجع معذبا للحياة.

وهممت أستشيط غضبا على نفسي، أصبحت قضية حبي هي نفسها قضية حياة أو موت ، انتصار أو هزيمة، جميعهم شكل واحد وطريق واحدة أتأرجح بينهم دون سكينة تذكر.

كان هناك من سلبني نفسي، وزحزح قلبي جهة يمنى لا تخفق أبدا، وهناك من أخذ مكاني واستوطنه منتزعا سعادتي وقد نهبها دون شفقة.

جاءني المخاض كأنني أنثى، ولكن ألمه في روحي استأصل الولادة، فكان ثقلا كاذبا وعذابا حقيقيا، ألمه يحولني لشيء أقوى من أرييل نفسه، أحيانا يتحول الثقل لأصوات كثيرة داخلي، وكم أريد استكانتها وصمتها! وكم بحثت عن دوائها ولكن كان ذلك دون سبيل.

حتى جاء هذا اليوم.

عندما حملت الذخيرة، وأنقذت إسرائيل يزيف، أصبحت بطلا في نظر الهاجاناه والبلماخ، وبت شامخا منتصرا شجاعا، يحتاجه الصهاينة دون منازع ولا مقايض.

في ذلك الوقت، كانت كل القوى تصنع طريقا للكيان، وبدأت معالم وعد بلفور تظهر، وبريطانيا تتنصل من انتدابها إلينا.

تترك لنا مساحتها، ودون قلة حيلة من المحيطين بنا، كنا نسحب فلسطين من تحت الجميع، وسنبيت أسيادا ونعلوا فيها علوا كبيرا، بدأنا نظفر بهذه الأرض بعد مئات من السنين.

كنت على وشك النظر نحو المستقبل، لأرى نفسي حرا ومالكا لكل ما أريده، إلا الشيء الوحيد الذي كنت أريده، ذلك الشيء الوحيد أيضا الذي غيرني، وهتك كبريائي وجرح صفاء سريرتي.

لا بديل لي..أصلا لقد فات الأوان على أرييل المزارع والعاشق، أصبحت قطعة من اللحم والعظم، تخلو من الانسانية.

كان كل الذي أردته الانتقام من كل شيء، حتى من نفسي، لكنني لم أستطع فعل شيء لها. لا شيء

سوى التيه والجمود أمامها كأنني صنم.

لقد تحكمت بي دون أن تنبس بكلمة واحدة. وحتى دون أن تمد يدها صوبي.

ومر القليل من الزمن، حتى أصبحت قائدا لكتيبة البلماخ، لم أعد جنديا ولن أكون فذاك الشر كان أكبر من ذلك، تدربت تدريبا قاسيا لمدة ثلاثة أشهر، لم أترك شيئا قذرا لم أمارسه، وبدأت أصبح شيئا غريبا عن نفسي وعن الواقع حتى.

أهذه قصة؟

ربما ليست كذلك، ربما كتبها الشيطان الذي فاز عن إبليس نفسه، وعلمه كيف يصبح خائنا لمعنى الانسان.

الآن..

نظرت مني كفيلة بإبادة قرى، أصبحت أغير قدر الناس الذي كان سيكون عاديا بأيامه.

اقترحت توسيع نطاق الإبادة، قبل انسحاب القوات البريطانية، لأنني انتهجت خطة أطاحت بالجميع، أطاحت بالذئاب والأغنام، بالأعداء والحلفاء على حد سواء، وهذا الطريق والمنهج، هو منهج أرييل آشر الأخير.

فهناك طريق بات واضحا أمام وعد بلفور، الذي أصبح على وشك الظهور، وكان لا بد لنا من تجهيز الأرض للشعب اليهودي.

والمفاجأة. أنني لم أنس عطر ماريا الدرة، لم أنس يدها الممدودة لخليل، وحبها لكل فلسطيني .

أصبحت أضع صورتها المتخيلة، وأنا أقطع جسدها المغطى بلباسها الأسود الحزين، على فراق زوجها وحبيبها.

ولكن..

الظلام دوما مخيف، رغم أنه سيحث حواسا أخرى، لكي تصبح عملاقة وعلى أهبة الاستعداد.

ماريا الدرة حياتها كحياتي مظلمة، لا أحد سيملأ فراغ الحب المفقود داخلها وداخلي، لا الزمن ولا البشر سيعوضونه أبدا.

كان لديها حس خرافي، يلتقط ذوات الناس ويصنفهم حسب علو وسفالة أرواحهم، فكل نظراتها لي، كتمت فيها هروبها مني كأنني اللعنة ذاتها.

العمر الفتي لا يكشف أبدا عن عقول البشر، العمر الصغير، قد تكون تجاربه منحرفة وكثيرة وقاتلة، لا تسألوا عن العمر فليس مقياسا للذات أبدا.

كنت قد أحسست أنها دخلت مكامني، وعرفت حقيقتي، أحسستها أيضا فارغة، فهي كانت خاوية لقوة حزنها على فراق زوجها، وأنا لقوة حزني على خيانة حبيبتي.

أردت جسد ماريا الدرة المقدس، أحببت أن أشوه قداسته التي وهبتها ماريا للحب، حب عربي يصيبني بالجنون، يذكرني بخيانة أيالا، الحب الذي تعدت حدوده ماريا كان الحب نفسه الذي تعدت حدوده أيضا أيالا، الاختيار نفسه يجعلني أراها بمقت.

فكرت في أيالا ثم خليل ثم ماريا، وتوصلت أن الوصول لحبيبتي سيكون هرميا وعكسيا، فيجب أن أصل لماريا أولا، لتوصلني لخليل ثم حبيبتي أيالا.

وكيف؟

الطريق نحو ماريا صعب، فهي تنتقل بسرية، ولكن أليست حمامة تطير برسائل سلامها نحو الحزانى؟ أليس المعذبون طريقها وحياتها التي نذرتها؟

فهي حمامة المواساة، إذن كان لا بد لي من خلق الفوضى، واستدراج مسرح للحزن لتطير ماريا نحوه.

والعودة الآن نحو الرغبة، سيجعلني أواجه مصيبة أخرى، فأن تتعلق بشهوة ما، سيجعلك هذا مفترسا ما، أيا كان نوعه وسبيله.

وبدأت في المضي نحو حقيقتي، رافعا ذاتي المظلمة والخائبة فوق كل حقيقة، بدأت لعبة القتل والتلذذ به، والبحث عنه كأنه الأفيون، الذي ينقلني من متاهتي لمملكتي.

نصبت الشرك حول الهاجاناه نفسه، تفننت في وضع الحروف في مكانها الصحيح، حتى باتت كلمات لها روح، وروحها شريرة غاضبة.

ذلك الوقت. كنت متسكعا باحثا عن أثر لخليل، علني أصادف عبير أيالا.

كنت قد عهدت لنفسي بأن لا أرجع لقريتي، حتى أرجع أيالا معي، عاهدت عهدا لا نقيض فيه، ولا مرادفا له سوى عهد العودة بها.

حتى وصلت لحيفا، كان هناك عرب ويهود يعملون في مصفاة للبترول، كان الجميع يعمل دون ضغينة، فأصابني هذا بذكرى الحب الآخر، الذي وهبته أيالا دون ضغينة. حتى كان يشبهه حقا!

تنهدت ..شممت هواء ثقيلا، ورحت أسكن لشيطاني، العالم الصامت حولي كأنه السلام، لا بد لي من قهره وفصله، وفي لحظة تنفجر فيها كآبته.

رأيت توافقا، كان لا بد لي من كسره بعقل كإبليس، تلصصت جيدا، كان العرب يأتون من طريق، واليهود من طريق أخرى، إذن السبيل لقتل السلام بين يدي.

كان علي أن أختار فيه، إما نصب الشرك الأول للعرب أو لليهود.

بالرغم أنني أعلم بل موقن جدا، أن كليهما على حد السواء، سيتصارعان كما أريد وأحب، والمسألة تحتاج لوقت ليس إلا.

في لمح من الحقد، صنعت قنبلة جاثمة على طريق العرب، وهم آتون ستنفجر لأثأر مقدار ذرة من خردل، أمام عملقة ثأري.

جاء الفجر يلوح، وبدأ صباح، أسميته صباحي، وبدأ الجمع من قرية الشيخ وحواسة جنوب شرق حيفا، يذهبون كعادتهم للعمل، وفجأة.

بووووم....

انفجرت كأنها سيمفونية كارمينا بورانا في أوج غضبها، ودون أن تعلم البلماخ والهاجاناه نفسها ما حدث، لعبت أول لعبة لي، وتحكمت في الجميع، كأنهم دمى بين خيوطي وأصابعي.

ظن العرب وهم يخوضون في دمائهم وأشلائهم، أنهم اليهود يريدون إثبات نزعتهم العنصرية عليهم ...

وبدأت العرب تلعب لي، وفي ساعات حتى دون أن أحتاج لخائن، استداروا صوب غريمهم الذي صنعته خديعتي لهم، وبدأت الحرب التي أنشدها.

تجمع أهالي قريتي الشيخ وحواسة، وانقضوا على اليهود يقتلون، كنت ممتنا للجميع على ما يقدمونه لي، فالسلام اشتعل بطرف خفي، واستوطن مهد الدمار قيعان عقولهم وقلوبهم.

إصطف الجميع قتلى وقاتلين، لا يدرون ما الشيطان الذي بينهم! ولم يعلموا أنهم جميعا ضحايا، جعلتهم سفاحين، فالظلام الطويل يوقظ مراتع الكبائر، ويجلد لمعان السلام جروحا نازفة.

وبدأت افتراسي كان هذه المرة مسموما، انتقلت للبلماخ شرسا شجاعا يموت، ليعيش اليهود .

وبكلمات ثورية، نشرت بريقا في أعين الصاعقة، ليبدأ البلماخ بين يدي، عجينة أسويها كذراعي اليمين.

الحقد طور انتهازيتي، بت معلما قديرا بعد أن كنت تلميذا.

وفي ليلة رأس الميلاد من عام **1947**، دخلنا قرية الشيخ وحواسة، وبرشاشاتنا أبدنا الجميع، وحدي قتلت العشرات وكنت كل مرة أقتل فيها، أزداد لذة وغضبا، ولكنني لم أشف و لم أبرح نقطة الخذلان والعذاب والخيانة، بل ازددت عطشا، وأنا كذلك رأيتها..

رأيت ماريا الدرة، كأنها كانت تنتظرني، كأنها دعت لقائي الأخير هنا معها، عندما وجدتني ابتسمت ابتسامة تشبه ابتسامة خليل القاهرة، لتقول لي:

-علمتك شيطانا يا أرييل أحسست بروحك القذرة.

كانت في قرية الشيخ تساعد المكلومين الذين فقدوا أحباءهم، كانت تبحث عن المواساة، لأجل الحزانى، ووسط الصراخ والموت والرصاص والخوف، انتشلتها نحوي كالذئب.

قاومتني كلبؤة تصارع قطيعا من الذئاب، ولكنني كنت ألف ذئب على لبؤة واحدة.

حملتها وجراحها تنزف، قطعت ثيابها السوداء من جسدها المقدس، ورسمت في خلدي أنها خيانة أيالا، أنها العذاب الذي لابد لي من تحريره، فوق جسدها ومقدساتها.

ابتلعتها داخلي، وأكلت كل حريتها واجتثثت سلامها بأعضائي، وعندما أكملت شعرت بالرغبة في المزيد، فلم أشبع لم أجد السلام ولا الاستكانة!

وتحولت من الاغتصاب لآلة اغتصاب، ورحت أجثم فوق نسائهن، كلما احتجت لأشعر بالتفوق.

على من؟

لم أعرف أبدا على من تفوقت؟! لم أعرف إلى غاية اليوم.

كنت في كل مرة أفعل ذلك أخسر روحي، ليست اللذة هناك ..ليست هناك أبدا، لا أفهم بعدها كيف أصبح إنسانا؟ ابتعدت عن ذلك المفهوم بسنوات من سرعة الانسلاخ..عن كوني بشرا وشخصا وذا ونفس، لقد فقدتهم جميعا..جميعا

حملتها خلف شاحنتي، بعد أن زرعت شيئا مني داخلها، أحسستها مصابة بكل أنواع الصدمات والألم والقرف، أحسستها منهكة لدرجة، قد ماتت أعصابها بها.

لففتها بلحاف موجود في تلك الغرفة التي أقدمت فيها على تحقيقي خيالي المريض بها.

كانت لا تقاوم شيئا، وماذا ستقاوم؟! وقد أخذت مقدساتها.

كنت أخطط لاستدراج الغريم، أردت أن أستفز خليلا وأضع له فتاتا من الدم، ليلحق بماريا أينما حلت.

كانت كتيبة البلماخ السرية تعبر طريقا نحو المعسكر، ولكنني أخذت مفاتيح من جندي يدعى ليفي، كان له مسكن حجري قريب من قريتي، أردت أن أسهل الأمر على خليل لإيجادي، كان المنزل شامخا، وحيطانه وأبوابه قوية كالسجن، حملتها داخله.

كان اللحاف قد امتلأ دما، وربما من أثر النزيف فقدت وعيها، تركتهم يرحلون من المكان، وجعلت بعضهم ينتظر متربصا من بعيد، وكانت الخامسة صباحا تقترب بدقائق، أخذت منديلا مبللا

وبدأت أغسل دماءها، مشطت شعرها وقد رأيت جرحا غائرا في رأسها، فوضعت حفنة من البن عليه ثم ربطته، وغسلته بماء بارد كمشاعري.

بحثت لأجد رداء نسائيا، ألبستها إياه ووضعتها على السرير كأنها ملكة تحتضر، وتتنازل عن عرشها للموت.

وأنا أفعل ذلك، أحسست بجانب آخر لي، كأنني منفصل عن ذاتي لشطرين، لا أعرف هل البلماخ تثير قوى الشر في نفسي؟ أم أنا من يثير الشر داخلي؟! أم الجميع ومعهم ذاتي؟

أم هي الأنثى الضعيفة التي ترجعني رجلا وفقط؟

لم أستطع إغماض جفني، شعور القتل يثيرني، ذكريات الاغتصاب تجعلني مجنونا وساديا.

دماء ماريا التي غسلتها بالماء، تقسمني لصراعين، مسحت بيدي وجهي وقمة رأسي، وسمعت أنينها.

أنا من؟

لا أعرف من أكون! هناك فرق بين الذاتين. هناك فرق بين السفاح والسادي والعاشق والحساس، هناك فرق بين الانسان والشيطان، فرق كالسماء والأرض، وبينهما فراغ عملاق، وبينهما أتعذب في سكون ولحظات وحدتي.

قضية وهم الوطن المفقود، والشعب المختار، تجعلني كمن يستيقظ خارج اليقظة، باحثا عن الحقيقة، ولكنه يرى نفسه لا زال نائما.

رغم تجسدها أمامي، في انتصارات الهاجاناه وعتو البلماخ، وفي سيل من البشرى التي تثبت اليهود على أرض مسلوبة، كنت أنا أنقسم وأنسلخ.

أتجرد من الحياة كطرف حية، تتجرد من جلدها. أما أنينها.. أنين ماريا الدرة يوقظ تنازعين، يوقظ أرييل الانسان، وأرييل السفاح، وسينتصر جانب السفاح بسهولة، لينثر شهواته وقبحه فوق الأرض عبثا.

وسأستسلم له، فهو الوحيد الذي يجتثني كالأفيون من الحقيقة ولذة القتل، تجعله كبيرا في نظري، لأنه الشر العظيم.

اقتربت منها، أتمعن في تفاصيلها المسلوبة من الحياة، والتي أظنها بدأت تكرهها، وتريد أن ترحل لجانب الراحة الأبدية من ثقلها.

فتحت فمها بحرفين، نطقتهما بثقل:

- م...اااء

كانت تريد الماء، اقتربت من أذنيها قائلا:

-عندما تخبريننني أين خليل ومعسكره، سأحضر لك ماء يا ماريا.

بلعت ريقها بصعوبة، وابتسمت بسمة خانقة وقالت:

-كم أنت ضعيف يا أرييل! كم أنت مسكين يا عزيزي! لا زلت تحسب أنني سأبيع قضيتي بكأس ماء!

مددت يدي نحو يدها، أمسكت أصابعها المهشمة والضعيفة، قبلتها مستفزا وقلت لها:

-ستبيعين قضيتك يا ماريا، بكأس ماء فارغ لا يروي ظمأك.

حاولت بكل جهدها أن تنزع يدها من يدي، وقالت:

- في يوم ما يا أرييل. ستعرف أن الشر الذي يقبع داخل الانسان، سيرتد أخيرا على نفسه كالسحر الذي يقتل أخيرا مولاه، لأنه اغتر بكذبه وبهتانه.

ثم غابت عن الحياة، ولفظت ماريا أنفاسها الأخيرة بين يدي، كأن ما انسل منها بعض النفس.

ماتت ماريا وهي تنطق كلماتها الأخيرة بغضب وحكمة، كأنها تظن أن معناها سيبقى في أذني أبدا.

رحلت وقد تركتني أجتذب غريما يبحث عنها.

وقفت من جانبها، ابتعدت صوب الباب الذي يطل على باحة شاسعة.

وعرفت أن ورقتي التي كنت سألعبها تلفت، وأصبحت في عداد الموتى، لا أعرف. كان هناك شيء ما يضيق بي، وهناك آخر يتسع لي، كانا كمسارين متعاكسين وخانقين.

كلاهما يخلف ضجيجا، يلوي كل الحقيقة ويخلف بعدها جنوني.

أشعلت نارا أمام الباب، وجعلت حطبها في دلو كبير من الحديد الصدئ، الذي كان مرميا أمام بئر عقيم..

انسلت من عيني دمعة، أكاد أخفيها حتى على نفسي، شوقا لها.

لتلك التي حولتني لسفاح، وأصبحت أحمل في مجمل ذاتي قضية بدأت أشنقها.

لحظة وأنا أفكر، أبصرت ظلا كان ساكنا أمامي، رفعت بصري، فرأيت عينيه الغاضبتين، كنت قبلها قد عزمت على الإمساك به غدرا، فالعشرات من البلماخ ينتظرون إشارة مني.

ولكنني عدلت، كأنه يقيدني ويسحر حقدي، ويكبل ذاتي بمجرد مثوله أمامي.

وكلما حللت أمري، وأردت تفسير جنوني، توصلت لنتيجة وحقيقة غريبة.

كنت أريده أن يراني أنتزع حب أيالا منه، أريده أن يسلب وجدانه كما سلبني وجداني، أن تهشم كبرياءه وذاته، كما هشم كبريائي وذاتي.

لهذا عدلت عن حيلتي، وتجهمت لمعرفتي أنه سيقتل فتقتل كبريائي معه.

أصابني الذهول، وعرفت أن استسلامي له، كفيل بردع البلماخ وقناصتهم عنه.

تكلم بعد أن نزع غطاء وجهه قائلا:

- الحقيقة ستبقى دائما ساطعة كالشمس يا أرييل، كنت أحس داخلي أنك وحش بشري، وشيطان إنسي، وفعلا كان حدسي حقيقة لا خيالا، فلا مروءة لك أبدا..أين هي؟

طأطأت رأسي وتكلمت بصوت خفي قائلا:

- لقد انسلت روحها منذ هنيهة، ولكن روحك ستنسل بإشارة مني يا خليل، فهذا فخ لم تتنبأ به لا محالة، ادخل. ادخل هنا لتراها.

صمت قليلا كأنه يفكر:

- وكيف ستقتلني؟ أرميا برصاصكم أم تقطيعا بأسلحتكم؟

قاطعته مشيرا بعيني إليه للدخول للمنزل.

وعندما اقترب ليدخل، هاجمني بخفة فاستسلمت له، كأنه هزمني، وعندها خرج البلماخ بكل أسلحتهم يودون تقطيعه، خرج عندئذ ثلاثة من أصدقاء خليل، يحمون ظهره وهو يجرني معه، طلبت من البلماخ الانسحاب وترك الطريق أمامه، وهكذا تنصلت به من الموت، الذي كان لا محالة سيحيطه.

ولكن الآن بت أنا من يحيط الموت به ويترصده ولا محالة، فهو محيط بي يترصدني بهم من كل صوب.

فاليد القاتلة ستجز كعشب أخضر، وبت مجرورا مع خليل وخلانه، كعصفور وسط السنوريات، ولا بد للعصفور من عقل جبار، ليصبح عنقاء طاغية وتنينا نزقا، طائشة نيرانه وحمؤه.

ولم يكن يعلم أن قيمتي في البلماخ والهجاناه عظيمة، وأنني يدهم التي تلعب ألعاب خفة خبيثة وأيضا مدهشة.

وكان لا بد أنهم أرسلوا خيرتهم ورائي، وعلمت أن بقائي معهم، سيجني على خليل حياته.

توغلنا في الجبال، والذي عرفته أنه يسير دون سبيل ولا هدى عن قصد، وقد توخى الحذر مني، وأعلم يقينا هذا.

مشينا ولم يتعب فينا أحد، كان أمامي رجلان، ومعي خليل وورائي رجل آخر.

كلهم يحملون أسلحة بيضاء مدسوسة وبنادق صيد، كنت أمشي أتحين فرص الطبيعة، من وديان أو كهوف علني أنجو بحياتي منهم.

بقينا نسير ونسير حتى جاء العصر، وقرب جدول صغير جلسنا، كان سيحرسني أحدهم ليصلوا البقية عصرهم، ولكن خليل انفرد بي لكلام يجيش بخاطره.

أمرني بالابتعاد قليلا، حتى لا يسمعنا أحد منهم وقال:

-كل الطريق وأنا أضع احتمالات الصواب الذي يفسر تصرفاتك الغريبة معي، وإنقاذك لي في كل مرة، فلعل الصواب أنك تريد الوصول لسيدك الحسيني؟ أو أنك تريد معرفة أسرارنا ومقر عريننا؟ أو تريد أن تكون النذل صاحب اليد الممدودة لي، المنقذة حياتي أمام أيالا؟!

أجبته:

-لم تصب ولو في واحدة يا خليل، ولتعلم أنني أنقذتك هذه المرة من موت محقق لا مناص منه، فارجع دينك لي دون نقصان، بيد أنني أعلم أن الهاجاناه وراءكم لا ريب، وان كنتم ثلاثة فهم كتيبة، ولهم كلاب مدربة ستقتفي أثري، وإن قتلتني فلا نخوة لك ولا كرامة يا خليل، ولكن اعطني حريتي واهرب، ولا تلتفت وراءك ولا تجلب لقائدك حربا أخرى مبكرة قبل وقتها.

اطلق سراحي. ولا تتردد فلا خير في مكاني معكم. أما ثأرك لماريا، ففي يوم ما سيسدد الكل ثأره ويصفي حسابه.

نظر لي مختنقا مهموما مفكرا، صمت قليلا، فسمع صوت الكلاب نظر لي وقال:

-سنلتقي يا أرييل، ويومها سيصفى الحساب بيننا.

نظرت له وهو وأصحابه يتجادلون، وصوت الكلاب يقترب، وعلمت أن جدالهم يطول، فهربت صوب أصواتهم، لألتفت فأجد أحدهم يجري خلفي كأنه مسعور، وكان يسدد بندقيته نحوي والأشجار الكثيفة تعيق رصاصه، كأنها أشجار اليهود، ولم ييأس كما لم أيأس، فكانت معركة حياة أو موت، وأحدنا كان سيموت هذه اللحظات.

كانت قرابة نصف الساعة، وكلانا يحاول الانفلات نحو هدفه، حتى سمعت صوت رصاصة، وخلتها لي، رغم أنني أعلم أن الأموات لا يسمعون النهايات، ثم رأيت بعدها قناص البلماخ يخرج من بين الأشجار، فيحيطني بسرعة جمع منهم. فسقط صديق خليل كورقة شجر، وفي لحظة أصبح عدما.

وعلمت أنهم سيجرون خلف خليل لقتله، فأخبرتهم عن طريقه وقد ظللتهم فيه، كما أن المئات معه، وسنشتبك حتما في حرب خاسرة.

وما العمل؟! وهدفي ورغبتي لا تعرف حدا، ورغبة انتصاري عليه رغبة مجنونة.

لعنة أيالا.

الانتصار طعم لا يمكن إلا أن تهبه السعادة لك، لا يوجد في الحياة سرور كسروره، فهو الفوز يا سادة.

أما الانهزام. فلا شيء مر كمره، ولو كان علقما وسما زعافا.

وكلاهما تذوقته حواسي بجميع أصنافها، وأكثرها طعم المرارة والعذاب.

والحقيقة أنني لم أنتصر في حياتي، إلا مع انتصارات القتل وتتويج البلماخ لي، بكل أوسمة الفروسية والبطولة.

كلما قتلت، أصبحت بطلا في أعينهم، وأصبحت شيطانا في عيني نفسي.

حتى تلك الانتصارات كانت مهزومة ومغشوشة، وتلك التصفيقات كانت تثير في نفسي زوابع رملية تعمي بصيرتي وذاتي. أقتل وأغتصب وأخطط، ثم ماذا؟

ينمو ذلك الكيان لتصبح حدوده عاتية كعاصفة لهب، جاثمة على نفسي وحتى أنفسهم، يصبحون دائما كأنهم في انتصار مهزوم، لا يجعلهم ينامون ليلا.

في قريتي أين كنا جميعا نعيش، كانت الحياة لا تضيق بي، ولا أحتاج أن أثبت لأي بشر من أنا.

بيد أن الانسان الوحيد الذي كان يهمني، أصبح لعنة علي وغشاوة تعمي بصري.

تلك الليلة، كانت مبهمة المشاعر، غيبية الاعتقاد مترهلة كجلد عجوز، قد قارب المئة من السنين.

فلعنة حبيبتي، لم تسقط على رأسي فقط، بل تعدت أناسا آخرين، كأن أمي بصارة، أبصرت خلف جمال ابنة اختها شعوذتها ولعنتها.

ذاك الشتاء ببرده وحربه، يفيض على العالم بوهج من نار، لا يدفئ أحدا ولا يسمن ولا يغني.

كانت الوحدة والعزلة، كلوح من خشب، في بحر من الطوفان، ربما تنقذ بعض هذا الانسان، إن كان بعضه موجودا!

كنت ليلا أنام في أي مكان معزول، لا أحبذ الأمكنة المكتظة بالبشر، رغم البرد ورغم الريح والخطر، كنت أنسل كسيف من غمده، لعالمي المتوسط بين الشيطان والإنسان.

كنت أكره النوم، وكان النوم سنة البشر، كما هي سنة العفاريت، فلا أحد يستطيع الحياة دونه أبدا.

لكنني كنت أمقته، فالأحلام فيه، كانت هي الوحيدة من تكشف باطني، وتعري على كفن مشاعري، لأراها مغمضة البصيرة.

أما تلك الليلة، والهاجاناه تتمخض في جلد الحرب، والعرب يتناقضون كالليل والنهار، كنت أنا أتذكر يوم غرقت أيالا، أتذكر الماضي الذي كان يرسمها لي كالعذراء مريم، وكعصا موسى، التي تختلق المعجزات، كنت تارة أبتسم، تارة أتعذب وأبكي، فأنا مجنونها.

حتى شعرت بعينين تراقباني، ولا بد أنه عدو لا صديق، فالأصدقاء لا يتلصصون.

تحسست سلاحي، وفي لمح البصر وأنا جالس، سللته من داخل حذائي، ووقفت أدور باحثا عن عين العدو المتلصصة والمختبئة.

لكنه تكلم بين الظلام قائلا..

وقبل أن أفصح عن هذا العدو، كنت أريد سؤالكم عن الحب الأعمى، إن كان مصلحة أم شيئا دون مقابل؟!

إن كنت لأجله، ستتحالف مع الشيطان نفسه؟

إن كنت ستموت، وتهب روحك العزيزة والمبجلة لأجله؟!

فماذا يسمى هذا؟!

حب؟ جنون ؟ انهزام ؟ انتصار؟ وأخاف حقا أن يتعداهم جميعهم!

ذاك الصوت خرج من الظلام، كان هناك ورع منهزم في عينيه ، لمعت عيناه التي عكسها اللهب الصغير، الذي كان يتكسر أمامي، مع صوت الخشب المتخبط بين الجمر والرماد، يخفي داخلها سرا متكسرا وحزينا.

عندما رأيته، عرفت شيئا واحدا وقد أخافني، عرفت أن خليلا يستطيع الوصول إلي قبل أن أصل له، وأن هذا الرجل أسطورة عملاقة، تختفي وراء لباسه البسيط وفقره، ألهذا إذن أحبته حبيبتي؟! ألهذا اختارته علي، وأوجبت على قلبها لعنة الحب، رغم النتائج المؤلمة؟! أهذا حق أم ظلم؟!

وقف أمامي دون سلاح، أعزل وكأنه مستسلم وفارغ الوفاض! كأنه سيعقد صفقة مع الشيطان، وليكن ما يكون، وأظن أن هيأته هذه، فتحت باب سره الدفين.

أرجعت سلاحي، وكلمته وأنا بين برزخ الحيرة والغيرة، وكثرتهما تغرق قلبي في جوف حوت.

بقي جاثما ثم تنهد، وعندها رأيت أيالا بين أنفاسه تغرق، هاجني الخوف كالطوفان، وبدأ العالم يختصر في صورتها كلمته متجهما سألته مشتتا:

-ما بها؟

صوته كأنه التهمه الصمت والخوف، ونحره البكاء خفية كطفل:

-أيالا اختطفها قومك يا أرييل، وسيقتلونها في أي وقت، الكل حاقد عليها وجدها دانييل لن يرأف بها، لم أرد أن أشعل الحرب بين قومي وقومك، وأزيد الوضع سوءا لن يفيدهما بشيء، وستكون الضحية أيالا في النهاية.

أحسست بكل رعبه، فهو رعبي أيضا، ليصغر كل شيء أمامي، لم أعد أؤمن بالوطن والعقيدة والزمن والاختلاف، خفت أن تنتهي أنفاسها فينهار الكون علي.

صمت أفكر، أسابق الزمن و بنفسي غصة.

تذكرت أنني عاهدتها أن لا أرجع لقريتي، إلا وأيالا حرة منه، فإذا بي سأرجع لها، لأنقذها من قومها وقومي، ومن يد الناس جميعا فأرجعها له.

وبسرعة أطفأت النار بحذائي العسكري الخشن، أخبرته أن ينتظرني أسفل التلة، ورجعت وقد غيرت ثوبي، وحملت سلاحي، ونزلت التلة هائما مرتعبا.

رأيته، رأيت قامته الطويلة والسوداء، وهو خارج من بين حجارة ضخمة، وعندما اقتربت أصبحنا نجري خلف حياة

الحبيبة نفسها، ونهاجم فكرة موتها كأسدين لا يعرفان الضعف.

وبعد مدة من الجري، وربما الساعة أو أكثر، بدت ملامح أضواء القرية تظهر، فناداني بتصفيرة منخفضه.

توقفت أتنفس أنفاسا سريعة لا أذكرها، فالخوف على مصير أيالا مرعب وكبير.

اقترب مني، فقد كنت مبتعدا عنه بمسافة، وعندما تقدم قال لي وأنفاسه كأنفاسي متقطعة:

- عندما قصدتك أردت حقن الدماء يا أرييل، واختصار ملحمة ملعونة لن تمن على قومينا إلا بالضرر الجسيم، ذاك كان بعض خوف من مجمل الخوف الأخطر، ولكنني أراك ستدخل على أهلك دون هدى، ولن يجني على ثلاثتنا وعلى قومينا، إلا بمصير بخس ودام.

فيا هذا تريث! واخبرني ما الذي ستفعله؟ وكيف سأفعله معك؟

مسحت على رأسي، وجلست على حجر كبير مسطح، ورحت أستكمل أنفاسي المتسارعة، وأفكر في كلامه، فالمبتغى كانت أيالا.

وعندها قلت له:

-سأدخل القرية وحدي، وانتظرني أنت هنا وس..

قاطعني غاضبا:

-لا والله سأكون معك، فإن كنت مطلوبا في قومك، فأنت مطلوب في قومي، وسيمزقك أصغرهم. يا أرييل. لا بد لي من تأمينك، حتى ترجع لي زوجتي.

لا أعرف إن كنت أنا البطل أم هو؟! أم أنني السفاح الذي يحوله الحب لشخصية أخرى، لا أعرف لها تفصيلا!

أنا وخليل، سنقتل من أقرب الأقربين وهما قومينا غضبا، فقد تزوج من يهودية وترك قومه وراءه.

و في نظر اليهود، فإن نساءنا لن تتزوج بغير رجال قومها أبدا، وستصبح منبوذة ومسفوكا دمها، ولو بعد عشرات من السنين.

كنت القاتل الذي قتل دون رحمة، أبناء أرضه وعقيدته.

كنت العدو الحقيقي والمبين، ولكنه تحالف مع شيطاني، ألأجل حقن الدماء؟! أم أنه الحب الذي يعمي كل حواسنا؟!

أم أنهما حكمة لإنسان، لا نعرف مغزى تصرفاته إلا بعد حين؟!

الحرب التي نحب.

منتصف كانون الأول قرية عين كارم 1947 الثانية ليلا.

هذا الذي يجانبني هو العدو! وأنا الذي أجانبه هو العدو! والقصائد والملاحم لن تصف مشاعرنا أبدا.

لن تصف عداء، يجمع الحب لنفس أخرى بقلبيهما! فهاتوا وصفا يا سادة! بل هاتوا رثاء، هاتوا مسرحا على النفس البشرية، تحتمل فيه ملحمة المشاعر والقيم هذه، وحتى أرضا؛ وإن كانت هذه الارض المقدسة الوحيدة، التي تحمل أعباء أنفسنا دائما.

كل خطوة أتقدمها، تفترس القمر والشمس ليصبح العالم مظلما، وتختزل الجسد فتقضمه، والروح تصبح عملاقة كبرج للسماء، وإن كانت روحي مقيدة، بأرواح القتلى وأصواتهم.

وصلت للمرج، أين كانت بساتين جدي دانييل، تجانب بساتين للعرب.

كان منزله يبعد مشيا، قيمة نصف الساعة من الزمن، ولكن صوت الكلاب بدأ يتعالى، فلا بد أنهم اشتموا رائحة سلاحي أنا وخليل.

أخبرته أنني سأذهب وحيدا لمنزل والدي، ثم لمنزل جدي دانييل، ولا بد له أن يبقى في أحد بساتين العرب، التي تجانب بساتيننا.

وافق على مضض وكره وحسرة، وانتظار كان أحر من نار شمس حارقة.

تلبد كل ما يحيطه في عينه، وجلس مطأطئا رأسه، وأخال عينيه تحبسان طوفان دمعه.

ويا لهذه النفس الأخرى! هذه الذات القاتلة والمنحازة لمكان الشيطان.

تحاول انتشال الحياة من الموت، وهي التي تزرع الموت في الحياة.

تركته. لا هم لي إلا إنقاذ نفسي أنا الآخر، من عذاب موت أيالا.

وصلت لمنزلي، طرقت نافذة أخي شمعون فعرف طرقي، فتح نافذته وابتسم قائلا:

-من غير أيالا الملعونة! سيحضرك إلينا يا أرييل؟ الملعونة ستأخذ روحك لا شك في هذا. منذ حضرت هنا وأمي تنتظرك، كان ظنها حقا وصوابا يا رجل!

تمعن جيدا في، وحاول معرفة أمري الذي لا يهمني شرحه له.

سألته مقتضبا عن مآل أيالا، وعن حكايتها، وكيف وصل الخبر لجدي وقومي؟!

تنهد وقال:

-من أوصل خبرها كان قوم خليل النذل، لقد جاؤوا جمعا، يودون تكسير منازلنا وإحراق بساتين جدي دانييل، أحضروها إلينا كخرقة بالية استعملت ورميت.

هالني كلامه، ألهذا إذن لم يرد خليل أن يزيد من الاحتقان والغضب؟ ألهذا قصدني..

أم أنه تبرير من عمل خسيس آخر؟

سألته كاتما غضبي على الذي حدث لأيالا من قوم خليل، وزاد هذا كرهي لهم، ولكن رغبتي في استرجاعها سالمة، كانت أكبر من كل حقد

-أين هي يا شمعون؟ أين أيالا؟

-لسوء حظها يا أرييل، انتشلها جدي دانييل من غضب القوم، لقد كادت أن تمزق وترجم.

ولكن لا حظ لها..

عندما صمت، أحسست بألف جرح مفتوح على الملح، أحسست بعرق غزير بارد يغسل جسدي، تراءى لي العالم ضحية لنار عظيمة، بدأت تشتعل بيدي في بساتين المرج.

نظرت له ويكاد الحرف يصبح أبكم، كنت أقاتل لاستخراج سؤالي له:

-ما الذي حدث لها؟

نظر لي، ولا شك أن قسمات وجهه تقودني للصراخ وقتل الجميع، وقتل قومي وقومهم.

-بالله عليك يا شمعون أخبرني.

نظر للخلف بعد أن سمع ضجيجا وقال:

-صبرا يا أرييل، سأخرج إليك فالخبر لن أقوله هنا.

لم أحتمل الوقوف. جلست متكئا على الجدار البارد كالسموم، ضاقت نفسي وأصابتني حمى مفاجئة، وانتظرت تلك الدقائق كزمن في المنفى.

لبث حتى لبس ما يقيه البرد، وحمل عصا وخرج لي.

انتظرت سكينه الأخيرة على الفؤاد بالضبط، فقابلني واقفا وقائلا:

-ما هذا الغرام يا أخي؟! ولا ريب. فأيالا ملعونة وستأخذك بلعنتها كما تقول أمي.

-أخبرني يا شمعون. وكف عني.

وعندما هم بالكلام على مضض منه، خرجت أمي غاضبة علي، تحمل فردة من حذائها ولا تكف عن ضرب أي مكان مني، تكلمت بشتى الشتائم وبأنواع العتاب كلها ما تركت شيئا لم تقله، و تركتها فعذابي يشد الكلام والفعال.

وعندما اكتفت، اقتربت مني وصارت تحتضنني وتنوح، فزاد هذا من دائرة الخوف، ليصبح كل الكون وما شمله.

زادت حمتي واهتزاز جسدي ومرار ريقي، وفي هنيهات، رأيت خليلا اقترب مني مرتعبا من منظري، ولا بد له أنه قرأ كل السوء.

وفي لحظات من ذاك الزمن المشؤوم، أغمي على القوي الذي لا يقهر، الذي صنع له تاريخا في منظمة، لا يدخلها غير الذين لا يعرفون الحب ولا ضعفه.

لحظات أو أكثر استفقت، وجدت خليلا مقيدا على الكرسي، ولا أثر لملامح وجهه.

فاقدا وعيه من الحياة، نظرت فزعا لوالدتي متسائلا بنبرة جنون:

-هاتي خبرك السكين هاتي. هل قتلت؟

تجلدت كعمود خال من الروح، وزادت تجاعيد عينيها، لتبدو كعجوز في الستين، فغضبها من أيالا القديم أصبح له دليل

ملموس، إنها الآن خطيئة حب العربي القاتلة التي جلبت بها عارا لا تمسحه أي كلمات عبرية شافية، فكيف إن كانت زوجته؟!

-يا صغيري، عندما سلمت أيالا لنا كانت تعاني من الإهانة والاحتقار، سلموها لنا وهي نجسة تحمل طفلا من الخطيئة، تلك الملعونة أثارت داخل اليهود العار، وصلبت مبادئنا أسفل السافلين.

لم يعد لي صبر، فصرخت وقد وقفت أحطم كل ما يقابلني، حتى قالت غاضبة:

-هون عليك. لقد انتشلها جدك دانييل من الموت مرتين، كاد القوم يمزقونها ولكن...

سيحكم عليها بالموت، غدا في المرج يا أرييل.

يقولون إن السجن المؤبد أخف من الإعدام، وهذا الخبر كان طعنة غير قاتلة، وسجنا لا رأفة فيه ولا رحمة، ولكن الإعدام هنا أخف بكثير من كل السجون.

نظرت لخليل، وقلت:

-هل ضربتموه يا شمعون؟ هل أنت وحدك من فعلت هذا؟

فخليل كان ذا طول وقوة، ويصعب جدا أن يفعل به شمعون هذا.

حتى خرج علينا جدي وبعض من المقربين، وقال:

-لا. لم يفعل وحده هذا، كنا عصبة عليه. وغدا في الضحى ستعدم أيالا وليرحل خليل هذا، لغير رجعة لقومه.

قال جملته الأخيرة، وغضب قاتم حاقد ينتفض من يده وسبابته، التي تشير لخليل، ثم هاجمني بعض القوم يودون تقييدي، فانصعت لهم فلا حيلة لدي الآن.

ثم تركوني في الغرفة، مع خليل الغائب عن الدنيا، وتركوا على الباب بعدها حارسين.

ناديت أمي، وبعد نقاش وأخذ ورد وعنادها الذي لا يخفى على أحد مع الحارسين الجاثمين على الباب الخشبي المهترئ، حضرت وجلست وهي تنوح على الملعونة أيالا.

وبدأت تتكلم دون سؤالها، كأنها تخبرني فعرفت أن الجد سجنها في منزله لغاية الغد.

اقتربت مني وأعطتني سكينا وغادرت، فالأم أم في كل العالم، لا تعرف انتصارا غير انتصار أبنائها.

ثم خرجت فدخل الحارسان، تمعنا في قيدي وقيد خليل وخرجا صامتين كأنهما لوحان من خشب.

حللت وثاقي، واقتربت من خليل حاولت أن أكلمه، ولكن لا أثر للحياة فيه، تلمست قلبه وتحسست أنفاسه، فوجدت نفسا ثقيلا لا خير منه ولا رجاء.

فتحت النافذة وانسللت كالشبح، تاركا ورائي غريما نافسته بكل فكري ورغبتي وإعجابي وغيرتي.

كنت سعيدا أنه سيموت، وتعيسا أيضا لأنه لن يرى انتصاري عليه.

مضيت أرجو أن أنتصر على قومي، وأن أنقذ الحلم من الموت.

اقتربت من المنزل، وجدت بعض الرجال لا غير، فجدي لا زال في منزل والدي، رأيت أيالا كأنها الزهرة التي قطفت من السماء، فلا مكان لها على الأرض هذه.

تفحصت المكان، كان هناك دلو مغلق من البنزين يستعمله جدي كوقود لشاحنته الصغيرة، صببته مسرعا على بستانه، وأشعلت عود الثقاب فانتشرت النار كالهشيم، خرج الجميع من البيت الحجري لإخماد نار عظيمة أشعلها الخوف والرغبة في انتشال العزيزة فدخلته، لأنتشل أيالا التي كانت تبحث بعينيها عن خليل، لعله ينتظرها على فرسه الزرقاء، وانتقلت أنا بنظري إلى كل من كان في منزل والدي، فكان الجميع يهم نحو النار التي كان البستان وكل ما يملكه آل آشر قربانا للحبيبة أيالا، ركبنا حصان جدي وانطلقت بها نحو البلماخ أعدو بها كما الريح.

الطريق كانت وعرة وصعبة، فكلها صواعد ونوازل وتعرجات جبلية، ومع الظلام الحالك يصعب الأمر لدرجة عظيمة، ولكن الرغبة في الانتصار قد تذلل الموت نفسه.

وصلت لمكان أعرف أن جنودي من البلماخ فيه، صفرت لهم فعرفوني .

سلمتهم أيالا الصامتة والمرتجفة، ثم نظرت لعينيها، أردت أن أصف لها الحياة التي ستصبح أخرى في منزل واحد يجمعنا، أردت أن أخبرها أن الكون كله، يرتمي بين كل شيء كونها .

حتى الهواء الذي تطرحه كأنفاس هو مقدس وحي، أردت...

وهممت بالرجوع نحو المرج، فهناك تركت شخصا، لا أريده أن يموت قبل أن أنتصر عليه، قبل أن أرى في عينيه الهزيمة نفسها، التي رآها في عيني.

رجعت إلى المرج، وأعلم أن الجميع في بساتين جدي دانييل يطفئون نارا عز علي إشعالها، ولكن القسوة قد تكون ناضجة كالحكمة، تعصر من ألمها الحياة عصرا.

تركت الفرس بعيدة قليلا، بين أحراش تفصل البساتين على واد صغير، واقتربت من منزل والدي حذرا أحسب أنفاسي وخطواتي.

خطوة خطوة..نفسا نفسا..فالأمر ليس هينا. والقرار الذي اتخذته قاتلي إن طفا على السطح سره، فلا البلماخ يسعدها ولا قومي يفرحهم هذا الجنون، ولكن الجميع لن يعرف حقيقة جنوني هذا أبدا، لن يتصور أحد ما يدور في خلد أرييل، لا الملائكة ولا الشياطين ذاتها.

تفحصت المكان. كان الكل وراء النار يلاحق متاهتها فقد شبت كأنها تنتقم من كل حي وأخضر، دخلت وكان المكان ساكنا، توغلت للغرفة التي احتجز داخلها، وجدته هائما في برزخ بين الحياة والموت، لا يعرف من تقاسيم وجهه شيء، فككت قيده وحملته على كتفي كجبل يناشد التحرك من وسط مرساه.

وعندما هممت بالخروج، كانت والدتي على الباب تقصد شيئا من المنزل، عندما رأتني لم تفهم شيئا، هالها تناقض ولدها الغريب.

إنه يحب الملعونة! إنه يشعل ويحرق بساتيننا ومصدر قوتنا! إنه ينقذ عدوا متربصا بنا!

كانت هذه الجمل تدور في عقلها كمروحة، لا تعرف استكانة لتفسير واحد فقط، يشفي غضبها وأسئلتها.

ربما تمنت والدتي الموت تلك اللحظة، ربما، لأنها شكت في خيانة أو جنون، كلاهما صعب ومؤلم على قلب أم.

كانت تغار من حبي لأيالا، فقد تمنت أن أحبها بقدر تلك العظمة، أحست أنها سبب موت أختها وذهاب عمي ورحيله بعيدا، أحست ذلك ولكنه كان منطقيا، فأيالا ساحرة الروح، جميلة الوجه، ليكون تفسير ذلك على عقلها متاحا على الأقل.

حتى تدمير حياة جدي وقومي، ستفسره بحبي لأيالا، ولكن..

أن تفسر إنقاذي لعدو سرق قلب حبيبتي، وشرف ومبادئ قومي! يبدو الأمر مستهجنا وغريبا، وأصبحت تخاف على ابنها الجنون أو اللعنة أو الخيانة..

إنها الأم التي ستكون أما، وإن كان ابنها خائنا أو مجنونا أو غريب الأطوار.

ستبقى الأم نفسها دائما..

صمتت وقالت:

-هل ستقتله؟

كان سؤالها هذا هو نفسه التبرير المحتمل والوحيد الذي يفسر لها جنوني، صمت وبت مخيرا بين الوقت المتاح لي، وبين سرد حكايتي التي لن يكون هناك مجال ولو بقدر إنش واحد في سردها، فهي حكاية لن يستوعبها عقلها أبدا.

هاجمتني بكلمة واحدة فقط قائلة بغضب:

-أرييل؟!...

سايرتها وهززت رأسي، فابتسمت ابتسامة مرتجة وفسحت أمامي الطريق، ثم رجعت لتمسك بي وقالت:

-بوك وأخي خلفي، صبرا سأذهب لتعطيلهما ولك بعدها الطريق يا بني، بركاتي لك يا أرييل.

وفي بعض من الزمن الذي تمدد كمطاط، سيرجع للوراء في أي وقت ويؤلم ناظري، مخلفا ذكريات قاتمة قوتها تصفع يدي الآثمة.

كانت أمي هي الأخرى، من يمجدون القتل والقاتل الذي يصفي عدوهم وإن كان لا حيلة له حتى في رد كلمة بسيطة عنه، أصبحت وأنا قاتل ممجد ومبارك من هذه الوالدة.

وضعته على الفرس أمامي ممددا عليها، وسرت على طريق أخرى طويلة وموحشة ومليئة بكل خطر، لا تسألوا لمَ؟ فنفسي التي تقودني لا تفسر لي دائما جنوني، لا تفسر أنني ربما أردت أن أنقذه أمام ذاتي، وذاتي الأخرى تقتله لطول الطريق، إنني أصارع نفسا بل أنفسا داخلي، مزقتني بشراهة، أكلت معظم روحي فأصبحت أمتلك شيئا شبيها للروح.

طلع الفجر، كان الهواء البارد يجعلني أريد الوصول قبل أن أسقط صريعا، بين يدي جنود عبد القادر الحسيني، فقد قادني جنوني لطريق قد يتحصن بها بعضهم، فهي كثيفة الأشجار ذات مسالك يصعب على البشر دخولها.

لكنني لم أخش أي طريق، ربما لأنني سرتها جميعا وأنا طفل، أتسلق كل خطر كمجنون لا يعرف معنى المضرة ولا السلامة.

وبدأ الصبح، انبلج بنوره فبانت الطريق ومعالمها، ورحت أسير حتى وصلت وقت الظهر، لمكان كتيبتي وجنودي.

عندما رأوني، استبشروا بأسير من جنود عبد القادر الحسيني، ومن؟ إنه خليل الدرة الرأس الثمينة، ورمز الرجولة لدى قومه وعشيرته، واليد التي تضرب من حديد.

ظنوا أنني جلبت لهم بيدي الأسطورية رأس جثة شخص، كان مستحيلا إمساك شعرة منه كان كالشبح العنيد، والمستعصي لمس معالمه وتفاصيل وجهه.

أخذوا جنود كتيبتي يحملون نظرات معجبة، فخورة، يظنون أن أرييل آشر لا يقهر أبدا.

بدأوا يصرخون، هذا البطل ..هذا المخلص..

كان كل شيء يسير في صالحي كأنني مبارك من السماء، كأنني مسير للبطولة التي لم أخترها ولم أسع لها، لا أحد أبدا استطاع تفسير ذاتي ولا ما يدور بخلدي، ولا ما أعيشه من انفصام هائل متناقض، لا يعرف استكانة ولا مكانا.

وفي لحظة.

خرجت زهرة روحي تنظر لي، وحتى هي رأتني بطلا، رأتني بأملها برغبة أن ترى حبيبها وزوجها على قيد الحياة، وأنفاسها لم تعبأ بشيء من فرحة الجنود، ولا من صرخاتهم السعيدة والمنتشية بأسر روحها، لا..

ناظرتني هي الأخرى بطلا بأملها، كما كل العالم الذي يحيط بي والذي يفسر تصرفاتي ببطولة، وربما حتى الشيطان كان يفسر بأمله ما أفعله، ربما حتى الملائكة فسرتني بأملها، أما أنا فكنت الوحيد الذي فسر نفسي بالجنون، بالغرور، بانفصام يقسمني لأرباع و كل ربع في ربع خال من العالم.

البطل في عيون الجميع، كان معذبا لا يعرف مكانا من نفسه.

اقتربت..

ضعفت، ابتسمت، توجعت نظراتها له تخنقني، خوفها عليه سكين يمزق بشرة جميلة، دمعاتها جمر حارق يسقط على عيني، أما نظراتها لي والتي كانت مهملة كانت امتنانا، يزاحم حبها له بشراسة، يظهر أجزاء من الثانية مقابل دهور له.

لازلت لم أنتصر عليه. لحد الآن..استطعت سرقة بعض الامتنان لا غير، لا بأس الصبر سيكون بعضا من الانتصار أيضا وربما قد يصنعه لي.

نزلت من على الحصان المسروق من قوم طالما أحبوني، وأنزلوا جنودي خليل دون وعي منه.

أحضرت له الطبيب مسرعا، اعتنيت به كأنه ولي للعهد، والجميع كان يفسرني حسب أمله، أولئك لأنني أعرف أن حياته قد تدلني على عبد القادر الحسيني، وأيالا لأنني أسعى لإرضائها.

أما أنا فأريده حيا لأذوق انتصاري عليه.

كم حياتك ثمينة يا خليل لدي!

معك أخوض حربا، وحربا أحبها إنها الحرب التي نحب.

الوجوه الأخرى.

أخطاؤك الكثيرة في هذه الحياة، قد تكون دليلا على أنك بشر، ندمك عليها يكون دليلا أيضا على أنك انسان.

والوجوه مهما كانت جميلة أو قبيحة، لا تخبرنا بحقيقة وشكل ذواتنا وضمائرنا أبدا.

كل شيء قد يتغير في لحظة فقط، وفي تلك اللحظة ستعرف أن الحياة لعنة علينا، وأننا نجتر أحلامنا ونكررها دون وعي في فراغ فقط.

أيالا جميلة جدا، كل الوصف لا يفيها حقها أبدا، حتى روحها أظنها تتسع نحو العالم، وربما هي هاربة من بعد أو كون آخر، لتتعثر بين قوم وأرض كهذه.

كنت أراقبهما، البلماخ والهاجاناه ازدادت قوة، كل شيء في صالحها، كنا نسير في الطريق الصحيح، والأيادي الممدودة لنا كثيرة وقوية كأخطبوط عظيم، عملاق لا يعرف له حد أو مسافة.

أعمل دون توقف فالمجد ينتظرني، وقلبي هناك بين كون أيالا.

الشمس تحدثني عنها، القمر يكلمني عنها، الأحلام التمنيات، الرغبة في اضطجاع جسدها، يلكمني بقوة عن التمني.

كان خليلا لا يزال فاقدا وعيه، ولا أعرف كيف لا يزال النفس يسكنه!؟

كل أطبائنا حوله، أوصيت بكل شيء ينفعه، لم أبخل بشيء صغير أو كبير.

حتى جاء إسرائيل يزيف، كان يثني علي بل وكل قادة الهاجاناه، يصلهم خبري وإنجازاتي وشجاعتي الأسطورية، التي لا مثيل لها، كما ظنوا أو تمنوا.

ولكنه بطن شيئا وراء سطور جمله، أراد أن يفهم لم كل هذا الشغف بخليل؟

لم أحرص على حياته بكل هذا الحرص؟! فهو في الأخير غريم وعدو وشخص، لن نستل منه معلومة واحدة على ما يبدو، فلطالما كان يدا لقوات عبد القادر الحسيني، ولن يبيعهم أو يخونهم أبدا.

أجبته، كأن إبليس من يوحي إلي، من يسكن ذاتي المبهمة التي تفاجئني كثيرا.

نظرت إليه وقلت:

- خليل الدرة هو ورقة ستلقي بلعنتها على قومه، وجنود عبد القادر الحسيني أنفسهم.

أرأيت شكك وأسئلتك، هي نفسها أسئلتهم وشكهم.

هذا البطل لديهم سيفقد ثقتهم ببعض، سيشككون من الآن بكل حركاته، وبعد أن كان بطلا ويدا وعونا، سيصبح خائنا ومتواطئا، سيشكون به في كل شيء وستبدأ قواتهم تشك بالجميع، سيصبحون لا يثقون بأي واحد فيهم، فخليل الدرة ليس جنديا لديهم، إنه رمز للقوة والبطولة والرجولة.

أنا أنقذه من الموت، لأزرع به الموت يا إسرائيل.

ربت على ظهري، وابتسم معجبا كأنه أمام مخطط لا يشق له غبار، وأوصى بنفسه على خليل، وأصبح يجهزني لمنصب سيكون منعطفا لعالم آخر.

وذات ليلة دخلت على أيالا، التي هامت بعقلها داخل غيبوبة حبيبها، اقتربت منها أجر الماضي على كتفي، أقبض على الوجع الذي سببته لي، وأجعله يبتسم على محياها.

نظرت لي فانبلج النور، من مبسم مرصع بلؤلؤ فنسيت اسمي وكل هم لي قد أصابني في هذه الحياة.

جلست جانبها، كل كلمة نطقتها تصبح خمرا يسكر ويخدر شيطاني، أظنني أتحول لملاك مغرد الآن ، تغريده يشبه البلبل، الذي أنقذ من القسم الغليظ للملك والنبي سليمان، وبين ذكرياتها هكذا أنا المسكين أكون.

حتى..

سألتها ذاك السؤال، اشتققته من اللحظة التي تمنيت أن تحدث وتكون فالمجد لها حبيبتي:

-لم أحببت خليلا؟ ما الذي جعلك تقعين في غرامه ولم يكن هناك احتمال واحد في المليون، أن تحبيه يا أيالا؟ كيف التقيته؟! كيف تزوجته؟!

نظرت بحزن، صمتت قليلا واكتفت بإصدار تنهيدة، كانت تجهر بكتل الحزن الثقيلة عليها.

توسلتها، كأنني أعلم أنها قد تكون فرصة أخيرة لأعرف حكايتها التي غيرتني، ونبشت على فؤادي قبرا لا لحد له.

قالت وكلماتها حزينة كأنها لا تطيق حملها، كان ثقلها يظهر جليا عندما يرتجف صوتها:

-ربما إن لم تعرف قصتي مع خليل، ستكون بخير حال يا أرييل، الغيب أحيانا أرحم من أنفسنا على ذواتنا.

عزيزي..

كلمتها الأخيرة بعثرت شتاتي، ليرجع في توازن لحظة لا تنس.

عزيزي..كلمة قد تقرؤون حروفها، فتمرون عليها مرور الكرام، أما أنا! فهي كلمة دخلت كنجدة لروحي ولو كانت هباء، لا يزيد ولا ينقص شيئا لها أو لكم.

أصررت عليها، وكلما أصررت كأنني أحرك جرحها بسكين، وأخيرا قالت:

-لطالما أحببتك يا أرييل، لطالما أعجبني صمتك الذي يخفي حبك لي.

جملتان، بينهما فاصلة فصلت ظنوني وعذابي، هل كانت تعلم؟! هل كانت تعرف؟!

كأنها جرحت كرامتي، وزادت من عمق عذابي، فليتها لم تقل شيئا، ليتها لم تعلم حتى تتجاهل كم الحب هذا.

أكملت وهي لا تعلم ما جنت علي:

-وثقت بك، وصبرت على تجريح خالتي ومكائدها يا أرييل، كل هذا وأنا أنتظر أن تنقذني من يتمي وحاجتي، وتحميني تحت جناحيك.

كممت كلماتها فمي، مهلا مهلا! أصبحت جانيا عليك يا أيالا؟! أصبحت الآن جلادك ومن تجاهلك ورماك!

هذا التيه الذي لم تعلمه أيالا، أكملت فيه قائلة:

-وذات يوم جاءني شمعون، يخبرني بأنك تنتظرني في نهاية المرج فجرا، حيث معظم القرية نائم، وأنك تريد أن لا أخلف لك موعدا.

زين لي الكلام حتى خيل لي أنك ستبوح أخيرا بما يعتريك، انتظرت الزمان المتفق عليه وتعطرت ولبست، وبانت السعادة في كل شيء في الدنيا يا أرييل.

موعد؟! موعد ماذا؟ لا أذكر أنني لمحت لشمعون بهذا، ولو كان على سبيل المزاح، ما الذي ترمي له أيالا؟! بقيت أصارع حكايتها، التي تنقلني كل جملة فيها لشعور آخر.

-وصلت منتصف الطريق كان فجر الصيف على المرج يضيف جمالا، ويفيض سعادة، حتى اعترضني شخص لم أره في حياتي.

هل تعلم من كان هذا الشخص يا أرييل؟

أجبتها متسائلا:

-كان خليل؟

-أجل.

عندما رأيته خفت على نفسي، وعمدت للصراخ دون انتظار، لكنه طمأنني وابتعد قليلا وقال لي، أنه لا يوجد سبب لأخافه، وأنه لا يريد بي شرا، عاهدني أنه سيتركني بعد أن أسمعه، إن رغبت بعدها في ذلك.

سألتها بغضب:

-ولم سترغبين؟!

وقفت، ونظرت لي تترجاني:

-وحق موسى يا أرييل، توقف هنا، فالباقي لن يفيدنا بشيء، توقف بالله عليك.

-لا. أكملي، ماذا كان يريد منك؟!

صمتت وكانت تأبى ولكن هذا زاد من إصراري فقالت:

-كان يريد أن ينقذني.

-ممن؟

صمتت قليلا ثم قالت:

-من شمعون

نظرت لها أتفرس في وجهها، فلعل الجنون أصابها، لعلها تهذي؟ لعلها ابتليت بأكثر من طاقتها، سألتها بهدوء خوفا عليها فربما لم تعد تطيق غضبا آخر مني:

-ما بك يا أيالا؟ شمعون! شمعون لن يؤذيك أبدا، لعله أراد أن يفتن بينك وبينه، لعله راقبك فهام بك حبا فأراد أن يفرقنا؟

قالت:

-لا. للأسف يا أرييل إنها الحقيقة، في بادئ الأمر تخيلت ذلك.

سألتها:

-ماذا أخبرك عن شمعون؟ أكملي.

-كان خليل في مهمة، تتطلب منه التخفي بين الصخور والأشجار الجبلية وهو كذلك، حتى سمع خالتي وشمعون يتحاوران، كان جدي دانييل سيورثني نصف المرج، بما فيه حق والدتي ووالدي وحقه هو كاملا، اقترح عليها شمعون، أن تزوجني لك لينتهي حقدها، ولكنها كانت لا تطيق ذلك، فطلبت من شمعون أن ...

-ماذا طلبت منه؟ فأنا لا أتخيل من أمي أن تؤذيك

فهي تعلم ولعي بك.

قالت:

-بل فعلت. وفعلتها قبيحة يا أرييل.

صمت، أحسست ببرد يتوسط كبدي، عرق غزير يغسل البله الذي يشوه الكثير من حياتي، لا أعرف وصفا أنقله لا، لا أعرف.

ثم قالت:

-لم أصدق خليلا، هددته أنني سأنادي اليهود و كل قومي، صغيرا كان أو كبيرا، شتمته ضربته بجميع الحجارة التي تحيطني، عل هذا الكابوس يختفي، وهرعت للمكان الموعود هربت منه، ولم أكن أعرف أنني تركت حبل النجاة.

وصلت، ناديتك وما رددت علي، حتى خرج شمعون، أحسست بقبري وحوافه، ولكنني هونت ذلك بابتسامة كاذبة وخائفة، سألته عنك فأخبرني أنك ستأتي، عندها. هممت بالرحيل، لكنه أمسكني مصرا علي للبقاء، وعلمت أنه لا خيار، رضيت وجلست أتظاهر بانتظارك، راح

يكلمني بأسلوب غريب، يقترب مني شيئا فشيئا، وبدأ يجن ..

صرخت عليها:

- لا تكملي..لا تفعلي ذلك.

فهمت تلك اللحظة، لما أسرف شمعون في ضرب خليل، لما حرض عليه كل قومي، كان يخشى أن يكشف فعلته لي أو لجدي، بدأت الصورة تكتمل بمنطقية أكثر، رغم أن جنونها يزداد كل حين.

أكملت أيالا قائلة:

-تلك الليلة، أنقذني خليل من عار لن يصدقني، ولن يبرئني من البشر أحد منه، أحسست بالأمان معه، أحسست أنني إنسانة ولست امرأة فقط، أحبني وعشقته، ولم يكن من سبيل لنا إلا الزواج، لا أحد كان يعرف بذلك غير أخويه وأنت، ولكن الآن الجميع يعرف، والجميع يتكلم عنا كما تريد أنفسهم وتسول لهم.

خليل ليس حبا جارفا فقط، إنه تحد لكل الخرافات، لكل العادات التي تفصل بين المحبين، وتنادي بتفريق جمعهما، من كان سيرضى يا أرييل بهذا التلاقي؟ لا قومه ولا قومي، ما ذنبنا؟ ألانني من شعب الله المختار، الذي بات يسرق وينهب في أرض طالما عشنا عليها جميعا، هل أخبرك بشيء آخر؟ أنا أحمل طفله وفي عرفنا هو من اليهود، وفي عرف قومه هو مسلم، يريدون تقسيم جنين لا يعرف لحد الآن جنسه! يريدون تقسيم الأرض والروح أيضا، وربما سيأتي يوم، يقسمون ويحللون ويحرمون فيه الأنفاس.

لا زلت يهودية، ولا زلت أيضا مسلمة، تحب وتعشق مسلما، وتزوجت منه وسأبقى طيلة حياتي مخلصة له، حيا كان أو ميتا، ميتة كنت أو حية.

لم يفرض علي خليل أن أعتنق دينه، بالرغم أنه يرغب، كما ترغب ديانته، ولقد فعلت ذلك حبا له، وحبا لما رأيته منه.

أجل لقد أسلمت، حتى وإن تأخرت لكنني فعلتها حبا وإكراما.

السقوط داخل حلم.

نهاية حطمتني، شيء كهذا لا يرحم، أن ينهي الحلم الجميل الرغبة الجميلة في اصطناع أمل، حتى مساحة الذكريات محتها أيالا، كلماتها جبارة ما أبقت على شيئا، لقد تملكها خليل، وانتصر علي وهو ينازع الموت، انتصر على رغبتي في الحياة نفسها.

خليل كان سببا في وجودي واستمراري، مهما كان شكل ذلك الاستمرار.

إنني أموت مجددا، كأنني أعيد ذاك الشعور، في السقوط داخل نفس الحلم، مرارا وتكرارا.

دموعها سلطان جائر، يجلد جلدي كلما سقطت على وجهها، نار الغيرة تفضح عصبيتي وجنوني ووحدتي، جنينها يكبر فتكبر مأساتي.

لم أفارقها، وهي لم تفارقه، كان ينازع الموت، وهي تخاصم الموت نفسه، أصبحت هزيلة مشتتة الفكر، تحدثه وهو في عالم ثان، وأنا أحدث قلبي عنها وهي في عالم ثالث.

يا بئس الحياة! يا بئس هذا الحب! ثلاثتنا ليس لديه سبيل للسعادة، ثلاثتنا نجري خلف بعض، في دائرة تتوسع كل حين، فلا نجني غير التعب.

السياسة أصبحت بالنسبة لي مشروعا لتأمين نفوذي، لكنها دون رغبة أو هدف أو طعم، أصبحت أهيم في عالم أيالا، تناقص كل مردودي للهاجاناه، ولاحظوا هم ذلك وعرفوا السبب، نقطة ضعفي أصبحت جلية للجميع، وهذه بداية الانحدار.

وكل الخوف أنني شممت رائحة الموت والقتل، تحيط خطرا بأيالا، فالغاية تبرر الوسيلة، كان مبدأ وشعارا للهاجاناه.

أحسست أن العيون تريد تصفية أيالا هي لحظة ويتم اغتيالها، لها جسد ضعيف ووجه طفولي وبريء، لا يحتاج للكثير من القوة.

أصبحت لا أطيق تركها، ولا أعرف كيف أصحح نظرة الهاجاناه لي.

جدلية لا أعرف حلا لها. فقومي لن يطيقوا أيالا ولن أأمن أمي عليها، فكرت حتى في قوم خليل، وبالتأكيد سيأخذون طفلها ويرمونها دون رحمة.

فأأمن مكان لها كان أين؟

دخلت في هستيريا لحمايتها، لا أجرؤ حتى على إعادة ما أفكر فيه، هل يمكن أن يصل عقلي لحدود ائتمان أيالا لدى الحسيني؟!

وأدخلتني أيالا جنونا آخر أكبر، كنت من يحمي خليلا، والآن أنا من أريد حماية أكبر، عدو لليهود ولقيام الدولة، إنه عبد القادر الحسيني!

وعندما قررت أن آخذها ليلا، بدأ خليل ينازع سكرات الموت كانت هي تئن وتبكي وتذوب مشاعرها، في نار لا حد لها.

مجرم الموت، يده أقوى من كل يد على وجه البسيطة، تفرق دون اكتراث، لا شيء يقف أمامه أبدا.

لا أحد يستطيع أن يفسر الحب.. لا أحد.

له سحر من الخمول، ينقلك في أقل من طرفة عين، لمعركة وملحمة، يتساوى فيها الخاسرون والمنتصرون، كأنها قد تكون هباء أو تعويضا، تتناقض بشكل يفوق منطقنا البشري.

رأيت خليلا يفتح عينيه، كأن للروح مكانا أخيرا هناك، يريد أن يرى حبيبته أيالا ليرحل بعيدا عن هذه الدنيا.

لثمته والدموع تتراشق المكان، احتضنته بقوة، وهو ينازع النزاع الأخير، حتى انتهى أخيرا.

وانتهى نزاعي معه أيضا، كلحظة اندثرت كما الدنيا، أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، ألم لا أعرف مصدره! كأنني فقدت شيئا ما، لا أعرف ما هو؟ لم أستطع تفسيره أبدا!

هذا النزاع كان داخل قاتل محترف، هذا النزاع يكشف أمامي جنون عقلي، الذي احتوى ألف شخص فيه.

ومن بينهم جميعا، كانت أيالا تخرج من عمقي أرييل، الذي تكدست من فوقه كتل من النزاعات والشيطنة والغدر والقبح.

مات خليل. فأحسست بموت انتصاري، و بموت أيالا، وقد أصبحت أرملة في العشرين من عمرها، تحمل طفلا لن يعرف أباه أبدا.

وفي خضم ألمها الشديد، بدأت تصرخ كأنها تنازع، ولكنه كان ألم المخاض، الذي زارها مع الحزن والعذاب.

كانت أيالا في شهرها السابع، ولنحولها كان يصعب أن تعرف حتى بحملها.

ليلة لا زلت أذكرها كأنها هذه اللحظة، وبعد ساعات عسيرة أنجبت صبيا، كأن الروح تنتقل بين حياتين، تذهب من هذا وتكون في آخر في لحظتها.

كأنه جزاء ما...يبيح للنفس القليل من الهدوء.

رفضت أيالا أن يتم دفن جثة زوجها دون علم أهله، توسلتني وأنا الضعيف أمامها، أن تذهب للقرية ولأهله، أن تحضر جنازته، ولكنني رفضت، وأمام دموعها قبلت على مضض، وأعلم أنني لن أحصد خيرا أبدا.

نقلت جثة خليل للقرية ليلا، وعندما همت بالنزول رفضت هذا، وأقنعتها بكل شيء فكرت فيه، أنها لن تلقى أي خير من وصولها، ونحن نتنازع تقدم نحونا شيخ في التسعين، يدعونه أبا عمر.

كان كأنه في الستين من العمر، وبين ظلام الليل كشف عن أيالا قائلا:

-ألست أيالا.. زوجة خليل يا بنية؟

نظرت له، وهرعت نحوه والصغير ملتحف بين يديها باكية مستصرخه:

-جدي أبو عمر لقد استشهد خليل.

أغمض عينيه حزينا، متألما وقال:

-إنا لله وإنا إليه راجعون.

تفحص جثمانه، وعرى على وجهه وقال:

-إنه مضروب حتى الموت، أهم قومك؟!

إلتفت إليها، فصمتت وانهمرت دموع تتكلم بكل شيء.

غطى على وجهه، ووقف قائلا:

-هل أنت نفساء؟

هزت رأسها بحزن، وقالت:

-إنه صبي.

نظر له وكشف عن وجهه قليلا وقال:

-إرحلي يا ابنتي، ليس لك مكان هنا، سيغضبون على قتل خليل، ولن يرحمك أحد.

وعندها أمسكتها من خصرها، جاذبا إياها للمسير معي، وهي تلتفت وراءها، لا تطيق ترك حتى جثته.

في ذلك الوقت ضاق الحال بأيالا، اسودت الحياة أمامها، كان خليل حبا جارفا، تحدت به قومين، تحرم قوانينهما وعاداتهما الحب بينهم، تحرم الزواج والارتباط مهما كانت أعذاره، هو أيضا تحدى الجميع دون استثناء، تزوج خليل من يهودية في أوج الصراع بين العرب واليهود، دون أن يلقي بالا، حتى وإن كان مجندا في صفوف قوات عبد القادر الحسيني.

كلاهما كون حبا فريدا ومخلصا وقويا، ومقابل ذلك دفع الاثنان ثمنا باهضا جدا.

وفي لحظة، تمنيت الأماني، تمنيت أن تنساه ويصبح مكاني بين قلبها أخيرا.

ولكن. أي مكان سأأمن عليه أيالا؟!

حتى فكرتي المجنونة السابقة، ستدخل أيالا في مساومة مشروطة معها، لن يهتموا بيهودية خطفت قلب عربي وقتله أهلها، قتلوا خيرة شبابهم و لهذا لن أفعل.

بدأت الأمور تتوضح قليلا، تذكرت منزل ليفي مفتاحه لا يزال لدي، وفي تلك الليلة نقلتها له، كانت مريضة حزينة، ترضع طفلها الخديج، الذي قد يموت هو الآخر بمرور نسمة هواء.

جلبت الحطب، أشعلت النار في الموقد، جلبت بعض الحمام الذي اصطدته بغربال وبعض حبات القمح، ثم شويته على النار، كانت جائعة تعبة، يتراقص على وجهها السمح قطرات من العرق، بدت شاحبة وجميلة حتى وهي كذلك.

نامت أيالا ونام طفلها جانبها، صوت الحطب الذي يتكسر، وضوء شمس الصباح الذي يتداخل بين فتحات الجدار الحجري ووجهها، صورة خالدة بين أحلامي.

مقدسة لا تفنى أساريرها بين خاطري.

نمت جالسا متكئا على الجدار، وأحسست بأنني أمسكت الحياة وربما انتصرت.

وفجأة..أحسست بنظراتها، فتحت عيني لتسقط في كون من صفاء عينيها العسليتين، ربما أنني في جنة من العسل، أو..أنني لا زلت أحلم فصمت، فلا كلام في حضرة الملكات.

تكلمت وهي تحتضن طفلها إلى صدرها، تحت لحاف خشن، نائمة دون نوم، رغم أنني أحسست وسط جنتي هذه، بارتجاف مخيف، بتسلط الخدر على نبض قلبي، شعور بائس يقلق حلمي وجنتي.

قالت:

-لطالما كنت أحس بسعادة معك، رغم كل الجفاء وإخفاء حقيقة شعوري نحوك، قبل أن أعرف حبيبي.

لطالما اعتقدت أنني في يوم ما، سأتزوجك يا أرييل، ولكنني بمجرد أن عرفت خليل الدرة، انتهى كل رجال الأرض بين خاطري.

ولطالما لمت نفسي على كل شيء، ربما خالتي محقة يا أرييل! لا يمكن أن أكون إلا ملعونة مثلما تقول دائما.

لقد قتلت أمي، وشتت والدي، وقتلت حبيبي وزوجي، وجلبت خديجا لا أعرف إن كان سيعيش، وفرقت بين قومين لطالما عاشا بسلام، والآن أنت تحوم حول ملعونة، لا يقترب منها أحد إلا انتهت حياته، إنني...

وضعت أصابعي على فمها وقلت:

-إنها الحياة يا غالية، لا تعرف جوانبها وأبعادها السعادة، لا تصدقي أمي أبدا فالملاعين لا يكونون ملائكة ولا شجعانا ، وأنت ملاك شجاع .

وقبل أن أكمل كلامي معها، سمعت ضربا على الباب، فأصيبت أيالا بالفزع، وأصبت بأكثر من ذلك.

ترى من الطارق المتجبر الذي يقتحم علينا السكينة؟!

تلمست مسدسي، وسكيني الذي بين حذائي، وحملت بندقيتي، والطرق تزداد حدته، حتى كاد أن يقسم الباب لنصفين، اقتربت من الباب وسألت عن الطارق، فتكلم جدي دانييل غاضبا مستحلفا بكل مقدس، أنه سيضع حدا لكل اعوجاج خلفته أيالا.

نظرت لها كانت ترتجف، اقتربت منها أمسكت يدها واحتضنتها كطفلتي، أقسمت أن لا شيء سيضرها، هزت رأسها كأنني قشة لغرقها، وفتحت أنا الباب ويا لهذه المفاجأة!

كان قومي جميعهم هنا! لم ينقص منهم أحد، يريدون رجوع أيالا والطفل معهم.

تملكني الرعب، رأيت عيون شمعون الغادرة، تفتش عن أخبار أيالا، عن شكه إن كانت قد أطلعتني على سره الخبيث، رأيت أمي سعيدة متشفية في مآلها وما صارت إليه كأنها ليست أمي، تمعنت في الوجوه الكثيرة التي تحاول الانتقام من الحب، دون فائدة أو رجاء، كأن الانتقام وأذية أيالا سيحل جميع مشاكلهم!

لن يسمعوا لي قولا، ولن أستطيع عمل شيء وسط العشرات منهم. وسط من ينتظرون التشفي أو الموت، ثم أنهم قومي وأهلي.

اقتربت من جدي دانييل، وأقنعته بالذهاب معها ومعهم، لم يتطلب الأمر جهدا كبيرا، بينما تورطت في إقناع أيالا بذلك.

حملت طفلها بين صدرها، وغطته بلحاف خشن وسط ذراعيها، ومشت معهم على حزن وخوف ومضض.

كنت أجانبها، أفكر كيف سأنقذها من خطر متربص بها من كل جانب! بداية من أقرب الناس لها و نهاية بالهاجاناه نفسها.

ونحن كذلك. إذ رأينا جمعا كان من العرب أيضا.

يتقدمون نحونا بالعشرات و فجأة. أحسست بالخراب يدق كل شيء، تسمرنا مكاننا ليقتربوا منا كجيش ينتظر الهجوم، توقفوا أيضا. فاقتربت من أيالا قربا، حيث كان كتفي يلامس كتفها، فأحسست بارتجافها وضعفها.

سألهم جدي دانييل:

-هل تفسحون لنا الطريق؟

تكلم أحدهم وكان شابا غاضبا ترتعد مفاصله:

-أعطونا طفل خليل، وليذهب كل أحد في طريقه.

نظرت أيالا لي فزعة، وأحسست بذراعيها تلتف أكثر حول طفلها.

تكلم جدي غاضبا:

-أين كبيركم لنتكلم معه.

فخرج من بين الجمع الشيخ أبو عمر، ينظر بوقار لجدي دانييل فقال:

-هناك قاتل بينكم، أو قتلة قتلوا خليل الدرة، وهذا لن يمضي دون عدالة من الأرض أو من السماء، وهذا شأن آخر سنفصل فيه، والآن أعطونا طفله فهو من حقنا، فدم أبيه يسري في عروقه.

انتفض جدي والجميع غضبا، واستعدوا لمذبحة لن يبقى فيها أحد، لتستدير أمي لأيالا شامتة، ونظرتها كانت تقول كل شيء.

وفي أوج ذلك ،هربت أيالا نحو مرتفع جبلي، في لحظة واحدة، ونادت مستصرخه ربها، فبهت الجميع:

-يا رب أنا لم أجن على أحد! يا رب لقد أحببت إنسانا وتزوجته فقتلوه، والآن يريدون قتلي وقتل طفلي! أليس طفلي ثمرة زواج وبركة؟! لمَ يحاسبونني يا رب؟! لمَ يريدون تعذيبي وفصلي عن فلذة كبدي؟!

صمت الجميع، كأن أيالا أعلنت التمرد والانقلاب الأخير على الكل، كأنها أوقفت غضبنا، الذي اجتاز حدودها، وتدخل في حياتها دون وجه حق.

تكلم الشيخ أبو عمر خائفا:

-بالله عليك يا بنية لا تفعلي هذا، قتل النفس حرام فما بالك بروح أخرى معك!

تكلم جدي دانييل، منتفضا من جلباب غضبه بخوف عارم:

-أيالا لن يصيبك شيء، لن يلمسك أحد، أنت وطفلك سترجعان معنا فأنت ابنتي.

وفجأة بدأ صراخ العرب، يريدون الطفل، واليهود يريدونه أيضا، كأنه قطعة أرض يتنازعون حقها وملكيتها ولتذهب أيالا للجحيم.

أما أنا فقد كنت كالمجنون، فهي العالم كله بسمائه وأرضه وأركانهما، لو تأذت سأنهار..سأجن.

اقتربت منها، فتقدمت نحو حافة الوادي، كلمتها برفق وهي تتمسك بطفلها بين ذراعيها.

بدأت الحجارة الصغيرة تنزل وتسقط، من أثر قدميها التي على حافة القمة هذه دموعها كانت سيلا يفيض على القسوة فيحزنها، دقات قلبي وقلبها، أسمعها كطبل يأذن بالرحيل.

مددت يدي، وأنا أقسم أن لا شيء سيؤذيها، لكنها كانت تعلم أن الأمور تسير عكس رياح رغباتنا.

تألمت معها..وتألمت أيالا، على رضيعها الذي يبلغ من العمر يوما وليلة، وقد علمت أنه لن يجتاز من عمره الصغير أكثر منهما.

حياة الطفل. أعظم في قلب الأم من أي حياة، لا يستطيع أحد غيرها، أن يعرف ذلك إلا أم أخرى.

فما أسوأ وأقبح الشر!

أجل، بدأت أحس بقيمة الأذية، بدأت أعرف ما معنى أن تسلب حياة أخرى، ليست من حقك!

بدأت أيضا الأفواه القاسية تريدها، كلاهما قومان يتنازعان حقا ليس ملكهما، قمة الظلم والتمرد على قانون الحياة، فهل العدالة أن تنزع خديجا من أمه المكلومة المترملة؟!

بدأت عيناها تسرحان في عالم آخر، والحرب تدق جنونها بين العرب واليهود، لا مفر لها لا مفر. غير هوة الواد السحيق، كلاهما يريد طفلها وأحدهما سيقتله نزاعا.

رأيت أجنحة الموت تسكن أحداقها وشممت ذلك، كنت أخاف الاقتراب منها لكي لا تسقط، كنت لا أتوقف عن استجدائها، لكنها دون عالمي تعيش.

وعندما احتدم بين القومين الصراع، حسمته أيالا بجملة واحدة.

فقالت:

-أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

جنتك جنتي يا خليل.

ورمت نفسها وطفلها فانتهت.

أيها العمر الذي انتهى بالموت، أين هي سيدتك؟!

لا أراها بين ضفاف النهر، ولا بين سهرات الصبايا.

أين تلك العينان اللتان تمتلآن فرحا، لرؤية بسمة بين ثغر للصغار؟ أين قسمات جمال سيدتك؟ التي تلون بالورد شفاهها وتبتسم.

أين أنت أيها العمر؟ وأين هي سيدتك؟ وأين هو قلبي أنا؟

كلماتها الأخيرة.

عندما يموتون..عندما يموت الأحباب، تتكسر أرواحنا للأبد، ألم هائل يغيرنا ويعري حتى إنسانيتنا.

يصعب أن نرجع كسابق عهدنا، وربما يستحيل هذا، ومن يعرف غير هذا الشعور البائس، إلا مكلوم ومحزون.

يا صبرا ما أمر طعمك وأشعثك! يا راحلا عنا أين السبيل لمرجعك؟!

كيف تكون الحياة حياة دون أنفاسك بيننا؟!

ماتت أيالا وصغيرها، وعندها فقدت معنى الحياة وطعمها أبدا.

كل صراخي وهي تهوي، وتتكسر عظامها مثلما يتكسر قلبي، لم يشفع لحياتها بشيء.

انتهت كل مشاعري جميعها بانتهائها، وبعدها تغيرت لوحش قاس لا يعرف منطقا أبدا.

أصبحت سفاكا ومفسدا للدماء، غرقت في تشويه حياة الجميع كما شوهت حياتي، غرقت في كل مسكر وخمرة، تنسيني ذلك المشهد الأخير لحياتها. دخلت البلماخ وتفننت في الموت لكي أنسى، ولم أنس.

لم أستطع أن أذق طعم السلام ليلة واحدة. صراعي وعذابي لم يشعر بهما أحد من البشر، أسدلت عليه جبروت قسوة لا منتهية، خلقت من قسوة الفراق الأبدي، فحتى وهي تموت كانت آخر كلماتها اسمه، وهي تضرب له موعدا في جنة بينهما، دون حتى أن تودعني.

ولكنني أقف بكل احترام، لحب تمنيته بجنون من الرغبة لي.

انهزمت، وبدأت في مرحلة أخرى من حياتي، وإن كنت لم أشف لا من عشق طاغ ورهيب، ولا من هزيمة متجبرة ومحسومة.

وكيف لي أن أمضي الآن؟

والواقع أن شر نفسي سيطر علي وكبلني، وبعيدا عن الحرب المشتعلة في الخفاء والعلن، بين اليهود والعرب كنت أنا أنازع.

الحرب! أية حرب ستنزح نحو النهاية، غير حرب نفسي وذكرياتي.

وبعيدا عن نفسي أيضا، بدأت المجد بين يدي الهاجاناه، بدأت أصبح السفاح المخطط كصوت الشيطان، حتى وصلنا لتلك النقطة، وهو هذا الزمن الذي غير حياتي إلى الأبد.

مذبحة دير ياسين.

9 نيسان 1948 الثالثة فجرا.

البلماخ قوة الصاعقة، والنواة القاتلة للهاجاناه، ويدها الضاربة فيها دون رحمة ولا مراعاة، وفي ذلك الوقت لم تكن الصهيونية تمتلك هذه المنظمة فقط، بل إنهم امتلكوا أكثر من منظمة واحدة، منها منظمة "شتيرن وأرجون" التي انشقت باسم اليمين المتطرف من الهاجاناه نفسها، وذلك منذ عام **1937** لما واجهته الهاجاناه الأم، من ضغط عربي وقيود بريطانية، خاصة فيما يتعلق بهجرة واستيطان اليهود.

هذان الأخيرتان، كانتا بمثابة يد من الأيادي الكثيرة للهاجاناه، استطعنا معهم ترهيب وتقتيل العرب، وسط سياسة الأرض المحروقة، ومنهجية فرق تسد، وأي شيء قد يحقق تذليل سبيلنا لقيام دولة إسرائيل.

تغلغل الحقد لكلينا مسلمين ويهود على حد السواء، وتوتر نمط حياتنا، وأصبح كلانا يشن هجمات كلما سنحت الفرصة لذلك.

تضخم الهجوم على جنودنا، وعلى اليهود ومنينا بهزائم ثبطت عزائمنا وأحلامنا.

سلك العرب طريقة الهجوم وقطع الطرق، ونحن لم ندخر أي جهد، للرد والقتال والتذبيح والتقتيل.

وعندما بدأت هزائمنا، ذهب الجميع نحو الفتور والرهبة والشعور بالخسارة والهزيمة.

كان لا بد لنا من استرجاع طاقتنا، وكنا بحاجة لانتصار يهز الفشل ويسطع به نجمنا.

ولا طريق غير طريق الخبث، واستئمان العدو لجانبك ثم..

تدس له سما، لن تقوم له بعده قائمة.

عقدنا معاهدة للصلح بيننا وبين قرى العرب، واستدرجنا أملهم بالسلام، ورحنا نستعد لهجوم بين ظلام الليل، دون أن يعرف أحد سرنا وعزمنا الخفي الخبيث.

أجل، عزم خبيث فالقتل من وراء الظهر لن يسعد غير الشيطان، الذي ليس من جنس الانسانية في شيء.

بدأنا بقلب المقاومة وقتلنا أسدها، بخيانة داخل عرين عبد القادر الحسيني.

قتلناه قبل ليلة واحدة من هجوم الأرجون والشتيرن، على دير ياسين، كانوا ما زالوا يغسلونه في الأقصى، وأمواج من المنظمتين الصهيونيتين تهجم على القرية دون رحمة.

ولا تسألوا عن لهجتي المتغيرة، حتى تكتمل ملحمتي.

أما أنا، ففي وسط تلك الأحداث، كنت لا أتكلم مع أحد، انشغلت بصنع القنابل والقراءة بجنون، أتقنت أي شيء وقعت عليه عيناي، حتى أكثر الأمور جنونا كتقليد صهيل الحصان مثلا، بل برعت في تقليد كل شيء له صوت أمامي، برعت في اللهجات الفلسطينية، واستنفذت الزمن أمامي لكي لا أفكر فيها.

وفجأة، ولد الحزن الدفين في أعماقي، رغبة في رسم شيء يعبر عنه، أو يسيطر عليه.

وبين الحق في سنة من النوم، رحت أرسم خيالات عن أيالا، تشبه قديسة جميلة بين خضار جنة في الأرض.

انفصمت لشخصية، لا أعرف عد رقمها داخل انفصاماتي الكثيرة! لشخصية تنحت وترسم أيضا.

بت مجنونا في نظر الكثيرين، وغامضا وبطلا في نظر آخرين، ولا قرار ولا مستقر له في عين نفسي.

وكلما صادفت إبادة وقتلا أيضا، كنت لا أتردد أبدا، أصبحت وحش البلماخ، الذي لا نظير له.

وفنانا مجنونا لا فك للغزه، حتى بينه وبين ذاته المنفصمة.

وبعد موت أيالا ببعض من الأيام، قلدتني الهاجاناه منصبا، لم يسبقني أحد غيري إليه.

فقد كنت السفاح، والرأس المخطط لجميع المذابح التي شنتها البلماخ، على القرى الفلسطينية.

وفي ليلة مذبحة دير ياسين، نمت وحيدا بين أشجار الغابات الجبلية لجبال القدس، غير بعيد على الهاجاناه المتعسكرة في مكان قريب مني.

وبين اليقظة والمنام، رأيت أيالا تشع بهاء مع خليل وطفليهما، أردت الكلام معها فمدت يدها لي قائلة:

-أرجوك لا تقتلني.

نهضت فزعا مرتعبا، وشق الحال علي، حتى بكيت حالي وشوقي وجنوني بها.

وفي لحظات عزلتي وموتي، جاءني ليفي مسرعا يخبرني أن منظمتي أرجون وشتيرن تحتاجان دعمنا.

سارعت متجها لقرية دير ياسين، رفقة أسلحتنا وجميع قواتنا.

في ذلك الوقت، ظنت المنظمتان أن تذبيح قلة سكانية ليلا، سيمنحهما انتصارا سهلا على القرية، وسيرفع من عزيمة الصهاينة بعد هزائمنا المتكررة أمامهم.

كانت خطة خبيثة وملعونة، فقد عقدنا قبلها بأسبوعين معاهدة للسلام مع القرى المجاورة للقدس، ومنهم قرية دير ياسين.

مذبحة تحولت حياتي بعدها لمسار، وشخص آخر تماما، وبعيدا كل البعد عن السفاح أرييل آشر.

كانتا تئنان، الأرجون والشتيرن. ينازعان بخبل وبله هزيمة صريحة مع قلة من العرب، لا يملكون جزءا صغيرا من تقنية السلاح، ونوعيته التي تمتلكها المنظمتان، ظنت الأرجون والشتيرن أن الهجوم ليلا على قرية دير ياسين المسالمة جدا، والتي تحوي بعض العشرات من السكان الذين لا يتجاوزون، الثلاث مئة والثمانين ساكن.

أمر في غاية السهولة، وسيحقق انتصارا سهلا وسريعا سيدخل المسرة على الصهاينة.

ولكن الشجعان قاوموا العدوان، بشجاعة منقطعة النظير، أسقطت الأرجون والشتيرن والصهاينة جميعا، أمام مأزق لن يخرجهم أي انتصار آخر منه، كان هناك الأربعة من الجرحى والأسرى اليهود داخل القرية، وبدأت أنفذ خطة استنفاذ الذخيرة لدى العدو، ثم الهجوم السريع بجميع أصناف الأسلحة، من القنابل والرصاص والأسلحة البيضاء.

وفعلا كنت صائبا، وليتني لم أكن كذلك.

ودخلنا عليهم، كنت كعادتي أفعل كل ما يخطر وما لا يخطر على بال الشر، أتلذذ بانفصام يسكنني، وعندما أكمل شري، يرجع ما يمزق سلامي مع بعض ذاتي، وفي وسط التذبيح والقتل والاغتصاب، سمعت صوتا يشبه صوت أيالا، ولربما كان الهذيان بها، يفتعل الأراجيف والأفاعيل بعقلي، ولكنني اقتربت صوب ما سمعته، وكان يقودني جنوني، حتى رأيت شبيهة لها كأن لعينيها نسخة منها، ونسخة طبق الأصل لها.

عينا أيالا نفسهما حتى أهدابها! هي الملامح نفسها بل الوجه.

تلعثمت، لم أعرف كيف أرجع الأنفاس لصدري! أغمضت عيني، فركتهما.. أعدت النظر، كانت في وسط المذبحة تعيدني لفرصة مسروقة، من أشياء فوق مستوى الإدراك والتعبير.

قلب مات وتوفاه العذاب، ورجع من قبر مظلم يرتجف ويئن.

اقترب منها أحد الجنود يود أن يغتصب طهارتها، فجننت لأقتله بكبسة زر من مسدسي، نظر جميعهم من الضحايا والجنود، على حد السواء لي بخوف، فقد بدوت في قمة جنوني، ولكنني لم أأبه لأحد أبدا وعندما اقتربت منها قالت:

- أرجوك لا تقتلني.

جملة أيالا نفسها في حلمي! وجهها نفسه وملامحها وصوتها، وبات القدر يفقدني صوابي، ويهش على عقلي ليجري دون بقعة أو مكان محدد.

ملامحها الطفولية، براءتها..صوتها.. نظرتها الخائفة، لا يوجد تفصيل واحد صغير، دون أن يكون صورة مثالية لأيالا نفسها. كأن الجنون يبتلعني وربما لعنة القرية، لعنة دير ياسين تلقى علي بتعاويذها.

كانت ترتجف بشدة، ترتعد كل قسماتها، بل كل شيء من جسدها كان كذلك.

وبينما الجميع يتكالب على نصر مخدوع وخبيث، حملت الفتاة وانسحبت في سيارتي المصفحة.

ومن شدة خوفها ورعبها، أغمي عليها فسقط رأسها على ركبتي، وتمعنت في الشبه الرهيب، الذي ابتليت به مجددا.

هل هذا فرح؟! أم تعاسة جديدة؟! تفتح الأقدار لها طريقا وسبيلا؟!

أم أن الصدف باتت مجنونة، لا تعرف صوابا ولا خطأ؟!

ارتجافها لا يصبح شيئا أمام ارتجافي أنا، فهل الموتى يعودون؟! هل يتكلمون؟

هل ضربت موعدا آخر مع الألم؟ فالشبيهة عربية أصيلة، وأنا الصهيوني الخادم لوطن، حكم عليه الرب أن لا تقوم له قائمة. فكتبنا نحن له قائمة وهيكلا.

وفي لحظة خلت أنني المجنون، فالمذبحة وعنفها وعدد الموتى أصابوني بتصلب في الحقيقة، ربما...هو هذيان!

رائحة الدم والظلم والقتل، هل أصابتني بنوع آخر من الجنون؟!

ثم...

أمرت الجندي بتحويل الطريق، نحو قريتي فهناك ستفصل الأمور، ويتحدد هذياني بالأدلة والمنطق.

وجدت أمي مستيقظة، تحاول إدخال هواء الربيع لمنزلها الحجري البسيط.

عندما رأتني من النافذة، ابتسمت ابتسامة عريضة وجاءتني تجري، كنت لا أعرف كيف أنزل من سيارة، كانت الشبيهة فيها تتوسد ركبتي، والتي آلت لجنة مكان، حرمني الشيطان منها لتعود إلي.

كانت والدتي فخورة بي، فأنا بالنسبة لها ولليهود رمز البطولة والمجد.

كانت سعيدة، وكنت صامتا ثقيل الكلام والإنصات على حد السواء، وعندما لم أتكلم ولم أنزل، وهي تحاول أن تفهم سبب ذلك، فتحت باب السيارة لتجد المغشي عليها، تتوسد ركبة ولدها وبطلها، أصابها شلل في ثرثرتها، وانقباض في سعادتها بي، وقالت بصوت منقبض ومرتجف:

-أيالا؟!

كلمة واحدة منها، جعلت عالمي يتغير للأبد، ابتسمت بعد عمر من الحزن، كأنني فزت بكل شيء، كأنني انتصرت على الجميع، وعلى الموت نفسه، أمرت الجندي أميت بالذهاب فورا.

لأنني تأكدت أخيرا، أن عقلي أخبرني الحقيقة، لم أكن مجنونا للحد الذي يجعلني، أرى وجه أيالا في جميع النساء.

لقد أخبرني عقلي الحقيقة، ويا لها من حقيقة غريبة ومدهشة!

لا زلت أحتفظ بمنزل ليفي المعزول، وعلى رقبتي يتدلى مفتاحه بخيط، لقد اشتريته منه منذ زمن ليس ببعيد، وبين الحين والحين كنت أزور آخر مكان، كان قد جمعني مع أيالا.

أمرت أميت بأن يجلب مؤونة من الطعام، وكل أغراضي وقد فعل فلا أحد من الهاجاناه يستطيع أن يتحكم في رغبات قائد مهووس بالقتل دون سبب.

وضعتها في مكان أيالا نفسه آخر مرة، تذكرت صورتها وهي نائمة، كانت مكررة مع هذه الصبية.

لا يختلف غير لباسها الأسود الطويل المزركش بمربعات حمراء وخضراء أيضا، كانت تعصب رأسها بمنديل أسود هي الأخرى، وتنزل من عليه ضفيرتين طويلتين بنيتين. إنها هي.

لقد عادت حبيبتي من الموت!

لم يفارق الشوق صدري، لم يعد شيء يوازي انتصاري، أنا لم أهزم يا سادة! ولا بد أن الرب يكتب لي صفحة جديدة من حياتي، صفحة لم أحلم بها أبدا.

أرييل آخر.

الأعجوبة!

النوم أعجوبة للخلق، والأحلام سحرها، فأي شكل للعالم عندما يكون دونما أحلام؟ ودون ليل نقفز به من الواقع للخيال؟

وتمسك أرواحنا فيه مشاهدا جميلة، وربما قد تكون كوابيس، والتي نستيقظ منها بأمل أنها كذلك.

فماذا لو كنت أحلم؟! ماذا لو كنت بين كابوس مضى، وحلم حاضر يزيد من لوعتي؟

تقدمت نحوها، وهي في عالم آخر، تحسست أنفاسها فإذا بها تتنفس، أغراني الأمر، وتلمست وجهها الجميل والناعم، هتف لي هاتفان، كلاهما ناداني من أعماق قلبي وعقلي، وصرخ داخلي أنني لا أحلم.

قالا لي وهما يتهامسان، هي من الجلد واللحم والعظم، تلمسها! فخشيت ذلك، لعله حلم مرة أخرى.

ثم هاتفني الوله والعقل، أنها بشرية وحية وحقيقية، هي أيالا قد رجعت من الموت. تلمسها!

جننت وفقدت عقلانيتي، رحت أصرخ أرقص أغني ثم...

نظرت صوب مكانها، فوجدتها ترتعش منكمشة على نفسها، بكل شيء حول جسدها.

حزنت. تحول رقصي وفرحي لحزن في لحظة تقدر بنظرة واحدة.

توقفت، سكنت وقلت لها بصوت منخفض:

-لا تخافي يا أيالا، أنا لن أأذيك، لن أفعل.. أقسم برب موسى أنني أحبك جدا بل مجنون بك.

لكنها باقية على حالها، ترتجف وترتجف، وقلبي يسقط و ينحدر نحو حزن عليها مبالغ فيه، تشتت توقفت أفكر، ربما لا تفهم لغتي! لقد نسيت في خضم فرحتي بها، أنني أحضرتها من قرية دير ياسين.

أين عقلي؟ إنها عربية! وحق الرب ماذا سأفعل؟! هل أكلمها بلغتها؟! سيبدو هذا غريبا علي، ولكنني فعلت ذلك، وبلهجة قروية فلسطينية كلمتها، حركت عينيها لأول مرة صوب مكاني، أنصتت لي، ورحت أطمئنها شيئا فشيئا، حتى دق الباب فتملكها الرعب مجددا، أخبرتها أن لا تخاف، فهذا صديق لي قد جلب الطعام، سألتها بلهفة عاشق إن كانت جائعة؟ فهزت رأسها هزة صغيرة، وبعد تحاور صغير، فتحت الباب على ليفي، وقد أحضر المؤونة فصرفته، ورجعت حيث كنت لعالمي الجديد.

أعطيتها تفاحة، وبلهجة قروية عربية بدأت أحاورها، حتى سكنت لي.

وبعد كلام بسيط معها، تناءت صور الخوف مني، فلقد أحسست أنها لا تملك أي ذكرى، لا شيء من الماضي تتذكره.

ليأتي سؤال من كلمة واحدة، فصل ظني عن الحقيقة.

سألتها:

-ما اسمك؟

أجابتني بعد تفكير قليل بحزن:

-لا أعرف.

يا إلهي. إنها لا تعرف اسمها! ثم توالت عليها الأسئلة مني، ولكنها لا تحمل من الذكريات شيئا لتجيبني به، لقد فقدت كل لحظة من ماضيها، ولا بد أن هول المجزرة والقتل والظلم، قد قتل كل ذكرياتها.

إنها الصدمة التي استفحلت في كل عضو داخلها، حتى أوقفت الزمن والماضي.

لا تذكر أنني قتلت أهلها، ومحوت بخبث ذكريات حياتها، لا تذكر أنني وكل جنودي اغتصبنا كل نساء قريتها، ثم مزقنا أجسادهن دون شفقة.

أذكر مشهد اغتصاب أحد الفتيات، حيث مزقنا نهديها ورميناهما في النار، كتعبير عن حمق مستوياتنا الدنيئة، مستويات لا تمت لشيء حي له روح، قلوب ميتة، تفرز روائح متعفنة من الظلم والبشاعة.

البلماخ الذي كنت المخطط فيه، هو يد الشيطان على الأرض المقدسة.

و الآن بت أنا. من أتذكر ماضيا صنعته لها، وكان رهيبا وقبيحا.

أما ذاتي العاشقة، فهي تطرق بابا للحظ فهل الحظ يصادق أرييل آشر؟ هل يلين كل مستحيل أمامه ليزهر طريق مجد؟

أم أنه عقاب في جسد امرأة فاتنة تغريني؟! ثم تبث سهمها إلى قلبي؟

لا عجبا أنني لا أهنأ أبدا! لا مع انتصار ولا مع هزيمة.

لا عجب! فبين هذه الحياة التي باءت تصور داخلي ممزق ومشتت، هناك قطعة صغيرة من نفس خيرة، وما أكثر في جسدي أعضاء الخطايا! بيد أملكها أعظم من الشيطان، كيف أحمل هذا الحب العظيم والكبير؟! وأحمل هذا الشر الكثيرة أشكاله وأصنافه ؟!

كثير على عقل ونفس واحدة هذا الثقل وهذا الجنون!

إنني باق معها لثلاث ليال، البلماخ كتيبتي والهاجاناه، يلتوون حولي كأفعى هرمة، لم تعد تحمل طاقة ولا تأثيرا علي.

والمخطط الصهيوني الكبير، للإبادة العرقية والتطهير الديني، ساقط في حب امرأة عربية مسلمة! لا يعرف غير حبها في العالم كله حبا.

جن الجميع حولي، الجميع من العائلة للجنود للمنظمة، الكل ينتظر خروجي من ليالي هذه العربية، أو هكذا ظنوا لينتهي الأمر وأشفي حبي بلقاء جسدي حميم.

لكنني لم ألمس شعرة منها، كنت طوال تلك الليالي بأيامها، أحكي للشبيهة عني، صورت لها ما حلمت به من عالم، لا تتدخل الهاجاناه فيه ولا تدخل كلمة اسرائيل بين تفاصيله، ولا يوجد هم في قيام دولة، لعنها رب موسى وهارون، عالمي الذي حلمت به صورته لها بصورة بديعة، والخيبة أنني صدقتها حتى أنا.

في الليلة الثالثة، شويت لها لحما، وصنعت لها شرابا طيبا كملكة صغيرة، ومع كل الدلال والرحمة، اطمأنت لي. وهدأ روعها وسكنت.

كنا إثنين يا سادة، فلا تسألوا عن الشيطان الثالث، الذي كان سيكون بيننا، فهو لا يعرف الحب ولا يفهمه، لا يجتمع الشيطان مع المجانين، فمشاعرهم فوق مستوى وسوسته، هم عظماء على الشيطنة بكثير، والشهوات ذاويه داخل أشيائهم المتخيلة.

وكيف سأقترب منها؟! أخاف أن أجدها حلما، وهالة ملاك أو حالة جنون.

أخاف أن أدرك في لحظة وأنا ألمسها، أنها نور وأسقط في الحزن واليأس مجددا.

الغريب! أنها ألفتني واعتادت علي ككل العالم، وقد رسمت لها أنني العالم كله، صورت لها أنني الوحيد الموجود لها.

وإن لم تعرفوا الحب العظيم، فلن تتصوروا حقيقة ما يحدث لي وما يحدث لها، لن تعرفوا كيف أنه يغير الانسان، كيف يجعله ضعيفا بقوة ومجنونا بعقلانية، وقويا بضعف إنه مشاعر عنيفة يغير أعماقنا كلها.

وكيف؟ وكيف إن حملتم حبا عظيما ثم اختفى إلى الأبد؟ وفي لحظة خاطفة، لا يستطيع تفسيرها إلا الرب، يظهر لك حبك كولادة كبيرة لقدر جديد.

تخيلوا هذا، تصوروه ثم ستعرفون بعدها، كيف وصلت لشكل آخر من أرييل آشر، الذي تحولت نفسه وذاته كلما ظهر حبه الكبير، في حياته المظلمة والشيطانية.

أما هي فلا أعرف كيف أجد وصفا دقيقا لها! فكل ما تملكه الآن هو أنا، هي لا تعرف ماضيها لا تعرف أنني السفاح الذي قتل كل أهلها دون رحمة أو شفقة، إنني أشبه الأسد الجائع، الذي يحمي غزالة من نفسه ومن غيره، ليث قتل كل قطيعها ظلما وغطرسة،

ومن قمة ظلمه سقط على أرض نقية، فأي شيء سيبرر فعلتي إن تذكرتني؟ أي حياة سأعيشها بعد ذلك؟!

ثم..

أردت أن أجعل من نفسي كل عالمها، وفي تلك الليلة بدأت أفكر في طريقة شبهها المطلقة بأيالا، شبه لا تشوبه شائبة، وفي لحظة تذكرت تلك القصة القديمة، لخالتي سارة، تلك الحكاية التي نساها الجميع.

استعملت نفوذي، في فرض حراسة شديدة على منزلي، ونزلت لقرية عين كارم صباحا، لأجد أمي كعادتها في المرج بين أشجار جدي دانييل.

رأتني، فوضعت قفة الثمار ومسحت يديها وهمت لي، وعندما وصلت صمتت قليلا وقطعت بادرتي في الكلام قائلة:

-إنها توأمتها، جلبت ملعونة أخرى بعد أن عشت طمأنينة كانت قصيرة بفضلك، إلى أين ستأخذنا يا أرييل؟ إلى أين؟

طفقت إليها راجعا، إنها من دمي ولحمي إنها يهودية.

فما هذه الهدية؟! كيف تقودني هذه الحياة نحو الفجر؟ نحو الحلم الذي لا أريد الصحوة منه.

ولكن مهلك يا أرييل، هي يهودية الدم مسلمة الفطرة، لا تعرف من عالم اليهود شيئا.

ولقد رسمت لها إنسانا عربيا للنخاع، مسلما يطير كغمامة ماطرة، قويا كسلطان جائر، حالما كشاعر عاشق. فأين أنا منه؟

لا عجب أن هناك قوة خفية، تلعب بي كقطعة نرد، تجعلني سعيدا وفي لحظة حائرا ومهموما.

كيف أمسك بهكذا امرأة في يدي وفي قلبي؟ كيف أجعل من مسلمة تحفظ الستين، تعشق يهوديا يحرق الستين؟!

يا أسفاه..سقطت في رحى، أقرض بين الحجرتين وأشتت من جدلية صعبة حتى على شيطاني!

رجعت لمنزلي، كان جميلا مرتبا تسكنه ضجة موسيقية من أنوثة حسناء، البيت الذي يخلو من لمسة امرأة، سيكون كمدخنة تطلق دخانها داخل بيتها، لا أثر للدفء فيه ولا للحياة، تضيق أنفاسك فيه وتموت مختنقا.

كنت قد جلبت لها ثيابا وقلادة من فضة، وحذاء جاء على قياس قدميها الصغيرتين.

وذهلت! كيف عرفت مقاس حذائها الصغير! فجعلتني أبتسم.

الساحرة أيالا...أقصد شبيهتها، وتذكرت أنها دون اسم وكنية.

جلست على كرسي نظفته، من غبار زمن قاس وحزين، فأصبح كعرش يغني عن كل سلطنة في العالم.

كانت ملائكية جدا. كحقيقة، فهي نور يغرد بين أطراف الجنة وحدودها، وكمحب أراها بمغالاته التي تفنى بينها العيوب.

أحلم أحلم..طعم الحياة يتسرب لحلقي، تزحف روح شديدة النقاء لحياتي، فأكتفي من كل شيء.

أراها تلجأ لي كصغير بين نهدي أمه، فيتسرب داخلي الحنان، وتتهاوى القسوة في قبر لا قعر له، إنني أتجدد لكائن آخر بين

أنفاسها، أتحول لإنسان يتمزق جلد الحية مني، ويصبح شفافا ولا هيئة له.

أطلقت عليها اسم سارة، كان اسم والدتها واسم تتشارك فيه جميع الديانات السماوية، فابتسمت ورزقت بعدها جمال كل هذه الحياة.

وبعيدا عن تحولي العظيم، بدأت الهاجاناه تتحول لمنظمة قوية وشديدة البأس، ولدت قساة داخلها دون رحمة، وأصبحت بعد مجزرة دير ياسين، تحت ضغط هائل، ضغط السياسة والحرب والعرب من جهة، وضغط الكيانات الصهيونية التي تختلف سياساتها فيما بينها وداخل هذه المنظمات الصهيونية السفاحة.

وبين الحب والحرب، تتصارع نفسي وذاتي، ويولد داخلي ضمير صغير.

وليس سهلا، أن تكون بطلا سفاحا مخططا مجنونا، كونت اسما وتقلدت أوسمة، وبت مهندسا لأكثر الخطط الاستراتيجية للهاجاناه وفجأة...

تنسحب في عز الانتصار والحرب.

لم تكن البلماخ ولا الهاجاناه غبية، لتعرف أن سارة مصدر تلكؤي، وتنازل استراتيجية التخطيط لي.

كنا على باب إعلان الأمم المتحدة، دولة إسرائيل، وكنا على باب الحرب مع العرب، وستكشف قوتنا أمام العالم بأسره، قوة استمدت من القسوة والظلم والقتل وسلب حق ليس لنا منه .

قيامة كيان.

السبت **6** أيار **1948**

"و نعلن أنه منذ لحظة انتهاء الانتداب هذه، الليلة عشية السبت في السادس من مايو (أيار) سنة **5708** عبرية (الموافق للخامس عشر من مايو سنة **1948** ميلادية) وحتى قيام سلطات رسمية ومنتخبة للدولة، طبقا للدستور الذي تقره الجمعية التأسيسية المنتخبة، في مدة لا تتجاوز أول أكتوبر (تشرين الأول) سنة **1948**.. منذ هذه اللحظة، سوف يمارس مجلس الشعب صلاحيات مجلس دولة مؤقت، وسوف يكون جهازه التنفيذي الذي يدعى إسرائيل "

"وسوف تفتح دولة إسرائيل أبوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين، وسوف ترعى تطور البلاد لمنفعة جميع سكانها، دون تفرقة في الدين أو العنصر أو الجنس"

"سوف تضمن حرية الدين والعقيدة واللغة والتعليم والثقافة، وسوف تحمي الأماكن المقدسة، لجميع الديانات، وسوف تكون وفية لمبادئ الأمم المتحدة"

"إننا نضع ثقتنا في الله القدير، ونحن نضيف توقيعنا على هذا الإعلان، خلال هذه الجلسة لمجلس للدولة المؤقت، على أرض الوطن في مدينة تل أبيب، عشية هذا السبت اليوم

الخامس من مايو (أيار) سنة **5708** عبرية (الموافق للرابع عشر من مايو **1948**)"

توقيع

"ديفد بن غوريون - دانيال أومستر - مردخاي بنتوف - إسحق بن زفي - إلياهو برلن - برتز برنشتين - حاخام ذيف غولد - مائير غرانوفسكي غوينباوم - إبراهام غرانوفسكي - إليوهو دوبكن - مائير فلز - زوراه واراهافيغ - هرزل شاري - راشيل كوهين - كالمان"

كاهان - س كوثاش - إسحق مائير ليفن - م . د . ليفنشتاين - زفي لوريا - غولدا مايرسن - ناحوم نير - راف لكس - زفي سيغال - يهودا ليب - كوهين فشمان - ديفد نلسون - زفي بنحاس - أهرون زيلخ - موشي كولورني - أ . كابلان - أ . كاتز - فيلكس روزنبلت - د . ديمبر - ب . ريبتور - موردخاي شامير بن زيون سنتيرنبرغ - بيخور شطربت - موشي شابيرا - موشي شرتوك ."

مقتطفات من نص إعلان "ديفد بن غوريون" يتحدث فيه بروعة خبيثة، عن قيام كيان صهيوني يصف فيه مشروع الظلم بالسلام، ويقف يدا واحدة بزيف نحو سلامها المزعوم، نحو أرض تحمي معتقدات سماوية عمرت لآلاف السنين، فوق أرض مقدسة للجميع.

كنت أجتر حزنا وسعادة وخوفا وقوة، لا أعرف كيف أميز بين أي حالة أعيشها!

هنا القدس أصبح خياله حقيقة، رغم اللعنة التي تلاحق اليهود.

بدأت الأكاذيب على مئات الآلاف من المهجرين اليهود، الذين تشبعوا بفكر الهاجاناه البشع، الذي يسلب المسيحين والمسلمين على حد السواء، حق العيش بسلام مع مقدساتهم.

باتوا يشبهون الأخ الظالم، الذي استولى على ميراث الأخوين، بتبريكات الشيطان من جميع الجهات والأمكنة.

إنني أريد منكم أن تتمعنوا في نص إعلان دولة إسرائيل من سنة **1948** إن تحقق حقا؟! إن استطاعت هذه الدولة المزعومة؟ أن تحقق السلام للجميع؟ أن تجعل من المسلمين والمسيحيين واليهود، يعيشون حقا جنبا إلى جنب في سلام؟

لقد كان كل هذا زيفا وبهتانا وتشويها للعدالة، والحقيقة والتاريخ والجغرافيا، وجوهر السلام نفسه.

القدس ملك العالم، فهو روح السماء وعاصمة العقائد السماوية جميعها، ولا يوجد حق في الدنيا، يسوغ تملكه لأحد دون آخر.

وصرت مع تقلبات ذاتي داخل فوهة المدفع، أنتظر إرسالي إلى عالم الموتى، إن كنت قد أظهرت عزوفا، لتنفيذ المخطط الاستراتيجي للهجرة العكسية، أي تهجير المسلمين واستبدالهم باليهود.

وضعت أكثر من مرة، في موضع للاختبار، فكنت سافلا لأبرهن حسن النوايا، والتعاون التام مع الهاجاناه الذي سينحل لإنشاء جيش نظامي، يدافع فيه عن الصهاينة من الحد إلى الحد الذي رسموه، ويطمعون فيه بنهر الأردن حتى نيل مصر.

أما منازعات ذاتي.

فحياتي لم تكن مهمة لي قبل سارة، لم أعد بعد أن وجدتها أستطيع تقبل موتي أو موتها، صارت الحياة لها معنى، يجرفني لأتمسك بها بكل قوتي.

ورحت أفتش عن الأمان، أفتش عن الزمن والمكان الذي أرتاح فيه، وأستقر لأعيش جنتي.

أردت رفض معتقد الموت والتعذيب، الذي يجعل الأحياء يتفرقون.

أجل، أصبحت أفكر هكذا، فقد نجحت سارة والظروف والحياة والقدر، في أن تغير السفاح لإنسان، يحب السعادة لنفسه كما يحبها لغيره.

لا تحتاروا في قوة الحب، هو شيء موجود وحقيقي، قوة جبارة تغير الأنفس والذوات وحتى المصير.

هناك بشر يتغيرون في لحظة، ستبدو تافهة لغيرهم، ولا تستحق تغييرا جذريا كهذا.

ولكن، هذا قد حدث وبدأ بالفعل.

أصبحت سارة تعشق دقتي على الباب، عربيتها ودينها الذي يأمرها بعدم الانفراد بي، ذاب في الأمان الذي أحسته مني.

والخوف القوي الذي يسكنها، وتشعر به في دواخل أعماقها، لم تستطع تفسيره لجهلها بواقعها، الذي أخاف أن ينكشف لها بجنون.

هي مفارقة طاغية صدقوني، شيء ذو مستوى يترنح بين الإدراك وعكسه، فدمها اليهودي وروحها المسلمة، مزيج لا يفسره غير القادر والعليم.

عشقي وفتنتي بها، وسعادتي برجوعها وحنانها الذي تملك نفسي، جعلني أمثل دور مسلم وبطل مغوار.

فأنا أمامها أدعى خليلا ربما تبتسمون الآن. فعندما ذكرت اسمي العربي أمامها، ابتسمت قبلكم لأنني تذكرت شخصا، أخذ كل حياتي قبلا، ونطقته دون وعي مني، كأن القدر يصنع من تردد وتدوير وتوازن أبطاله، عبقرية أخاذة وفوق الخيال ذاته.

ولأجلها أردت تعلم القرآن وقراءة الإسلام، وطرقت باب الهاجاناه أعلن انضمامي لفكرة المستعربين، الذين يدرسون الإسلام كأنهم منه، ويتغلغلون بين العرب كأنهم منهم، ويعيشون كطفيليات يمتصون أخبارهم وعقولهم وينشرون كل ظلالة فيه.

كنت الذي يستطيع اجتياز جسور مقطوعة، بين حياتي الخاصة وبين عملي المعقد والخطير.

وبعد اعلان بن غوريون عن الكيان الاسرائيلي، بدأت في العمل الاستخباراتي بعيدا عن المسدس والبندقية.

وقبلها..

طلبت يد سارة، عندما كان اليهود داخل فلسطين، وفي كل بقاع الدنيا يحتفلون بقيام دولتهم، في ذلك الوقت احتجت لفاصل صغير في حياتي، يقوم عليه كيان أرييل الجديد، الذي كان خيالا يستحيل قبلا، حتى تخيله وتصوره.

كانت سارة عاشقة بالفعل، عشقتني بكل معنى لهذه الكلمة، كما كانت هي عشقا لا يخطر على بال قلب، شدته وقوته.

لم يكن لها أحد يقوم على أمور حياتها، في وقت لا تتصورون قدر حساسيته وظلمه.

فتزوجتها، وعقدت عقد زواجي بهوية مزورة لي، وعلى الطريقة الاسلامية في القدس، حيث لا أحد يعرفني. مجرد شاهدين وإمام وأنا والجنة سارة.

حرب النكبة الخامس عشر من مايو **1948**.

عندما يصفون الحب، فهم لا يستطعون الوصول الحقيقي لمشاعره، ولا أعرف إن كانت مشاعر الرجال في الغرام تشبه حقا مشاعر النساء؟

الرجل الذي يحب حقا، تختفي نساء الكون أمامه داخل امرأة واحدة، ويكتفي بها طيلة الأبد، لن تملأ امرأة مهما امتلكت قلبه ولا نظره.

فكل رجل نظر لامرأة أخرى، لا يزعم أبدا أنه أحب الأولى حبا مكتملا.

سارة بين أحضاني، تحمل لي عصرا من مكان وزمان، لا تفسر جماله الخصب بالحياة كلماتي ولا وصفي.

لقد ولدت مكتملا وجديدا معها، وانسانا لا يشبه أرييل آشر، السفاح والصهيوني في شيء، لا شيء أصبح يشبهني غير رباط الهاجاناه، الذي يقيد ويكسر ذاتي.

أصبحت رجلا ينتصر على الموت والألم والعذاب معها، أصبحت مخلوقا بشريا، يصعد بالحب منها وبلمساتها، لجنة كنت موقنا أنني الملعون الذي حرمت علي.

انتهى الألم والفقد والفراغ والظلم، الذي أحسسته مع أيالا قبلا.

انتهى، لأعيش السلام والحب المثالي، مع جسد يشبهها باكتمال. وروح لها عشقتني بجنون.

ما أحلى أن تملك محبوبتك! ما أجمل هذا الشعور! ولا بد لي أنني أحسست بشعور أبينا آدم، الذي اكتملت جنته بحواء.

كل القصائد في الحب، لن تصف جمال شعوري، فأنا كمثل من احترق وشوهته النار، ثم بقدرة ربه ومعجزته، رجع أجمل من أي خلقة على وجه هذه الأرض.

بدأت الحياة الخاصة تغيرني، عائلتي أصبحت محط اهتمامي الأول، وفي منزلي في القدس الشرقية، أعيش عربيا مسلما بعناية صهيونية.

لكن الظروف الآن، تنزح نحو الحرب مع العرب رفضا لإعلان بن غوريون.

كل شيء أصبح حساسا، يفرض علي الانضمام لساحات الهاجاناه والقتال رغما عني.

الآن داخل نفسي لا أريد الحرب، ولكن الواقع فرض علي ذلك، فحماية عائلتي لن يحققها إلا انتصار مفروض علي، من جميع النواحي على مضض.

وبدأت أوزار الحرب، في الخامس عشر من ماي **1948** وصلت الجيوش العربية من مصر وسوريا والعراق والأردن والسعودية ولبنان إلى فلسطين، وبدأت تهاجم المستعمرات الصهيونية، التي أقيمت على الأراضي الفلسطينية، وهاجمت القوات المصرية تجمعي كفار داروم ونيريم الصهيونيتين في النقب.

وكثرت جبهات الحرب، واستطاعت ونجحت الجبهة الأردنية، أن تعبر ثلاثة ألوية منها، نهر الأردن إلى فلسطين، ثم ازدادوا إلى أربعة ألوية منها مع مضي الحرب.

ولكن قوة تنظيمنا ورغبة الصهاينة في إقامة دولة، والخيانة والتقاعس وأسرار كثيرة داخل الجيش الإسرائيلي والعربي على حد السواء، حسم نتيجة الحرب بما يسمى حرب الاستقلال للكيان الاسرائيلي، وحرب النكبة للعرب.

فدخول الجيوش العربية السبعة، لم يؤد إلى تغيير جدي في موازين القوى العسكرية، ولا في الخريطة الجغرافية الفلسطينية، بل استطاع الكيان الاسرائيلي بفضل هذه الحرب تثبيت مكانه، وتوسيع مساحته داخل فلسطين.

كأن هذه الحرب، كانت ممنهجة لإثبات وتثبيت حدود الكيان .

ولم يكن من شأن الجيوش السبعة العربية، أن تفعل ذلك في ظل تلك الظروف المخيبة لها، في جيوش تعدادها يحسب ببضعة آلاف فقط، بل لم تكن جيوشا بالمعنى المألوف للكلمة، وكما جرت العادة على القول، فقد كان تسليحها سيئا بصورة كارثية، مع مزيج من الصفقات لشراء أسلحة فاسدة بالجملة.

ثم أنها كانت جيوشا حديثة التكوين، فقيرة الخبرة تماما بفنون القتال الحديث، في ذلك الوقت.

بل إن أساس تشكيل نخبتها، كان موجها أساسا لحماية الأنظمة الملكية، أو حراسة الحدود.

وانتصرنا بفضل نقاط الخذلان التي حملتها الجيوش العربية السبعة، وبفضل دعم قوى خارجية في الظاهر، ولكنها طالما كانت تحت أيدينا وطلباتنا.

كنت بعد زواجي من سارة، ودخولنا مباشرة للحرب، أغيب كثيرا ولأيام طوال.

أتركها في منزل في القدس، في حارة باب حطة، ومن حين إلى حين ليس بطويل، أبعث من يطمئن عليها، ويجلب لها مستلزماتها بسرية تامة وتحفظ كبير.

نجحت فيه بشكل كبير، في الحفاظ على هويتي داخل مجتمع مسلم وعربي، حاقد على بني إسرائيل لما فعله بأرضهم وبهم دون رحمة ولا رأفة.

نتيجة الحرب كانت منافية تماما، لبيان بن غوريون وميثاق الأمم المتحدة، لقد تغيرت الخريطة الجيوسياسية بشكل كبير ومختلف تماما، أصبح اليهود يمتلكون أكثر من الثمانين بالمئة، من مساحة فلسطين وقسمت القدس لقدس شرقية وغربية.

وهجر الفلسطينيون بالقوة القصرية، إلى خارج أرضهم ووطنهم فلسطين، ليصبحوا عرب الثماني وأربعين.

انعكس هذا التغيير علي، وأصبحت رتبتي في الجيش والكيان الإسرائيلي الآن، تخولني لصلاحيات كثيرة ونفوذ أكثر وأعظم.

ولكنني مارست العمل الميداني، كمدرس للرياضيات في إحدى الإعداديات في القدس، وسارة أصبحت حاملا بأول أطفالنا.

عشنا حياة جميلة وسعيدة حتى جاء ذلك اليوم.

الرجوع إلى الماضي.

بعد سنتين من الحرب

السادس عشر من نيسان **1950**.

قبل يوم واحد.

مرت ستمئة وثمانية وأربعون يوم، منذ ارتبطت بجنتي سارة، الحياة طيلة تلك الأيام الفردوس بكل مقاييسها، أظن عشق أيالا ضاعفته سارة بشكل غريب، وتفوقت عليه.

هي مختلفة عنها بشكل مدهش، تتطابقان وتتناقضان وترجعان لتتشابها مجددا، وشعرت باختلاف سارة عن أيالا، فسارة أشد ذكاء وبديهة، تلمست منها أمورا في غاية العجب والدهشة، فرغم فقدها لذاكرتها إلا أنها تتكلم لغات كثيرة، ترجمت لي نصوصا بشكل يبعث على التساؤل والدهشة، فلم أظن، أنها ستحللها وتحل طلاسمها. بل هي متعلمة ومثقفة يتولع قلبي بحديثها ويفتن.

فهل هذه امرأة فلاحة من دير ياسين؟! جلهم كان بسطاء للغاية، والمرأة العربية بالذات في ذلك الوقت، مجرد زوجة تلاحق تربية أولادها، والسهر على راحة زوجها طيلة حياتها ليلا ونهارا.

أما هي فكلامها ليس بالطريقة نفسها، التي عهدتها من نساء وصبايا القرى، لهجتها الفلسطينية متكسرة قليلا لا تشبه أي لهجة أعرفها، و قد كان أكثر ما أتقنه، كشف اللهجات وتقليدها.

تذكرت ليلة التقيتها لأول مرة، كانت تلبس لباسهن، تضع منديلا أسود ملونا، ولديها تلك الضفيرتان العربيتان الطويلتان، اللتان

تنسدلان على صدرها، كانت شاردة واستدارت لي وهي ترتجف إلا عندما كلمتها بلهجة فلسطينية.

ما السر إذن؟ وأنا لا أعرف كيف أستخرجه منها، لأن الماضي سينهي كل مستقبل لي معها.

كانت هي نفسها تسألني، عن ماضيها. وكيف التقيتها؟! كيف أنقذتها؟! وكيف تعرف هذه اللغات ؟!

القصة نفسها المخترعة أعيدها لها تكرارا، أما عن ماضيها قبلي، فلن أستطيع فك طلاسمه، لأنه كان مجهولا لي وشديد الغرابة حتى بالنسبة إلي.

بحثت عن الوثائق جميعها، التي خصت مواليد وتسجيلات دير ياسين، علها تدلني على أثر ما، ولكن لا أثر لسارة أبدا.

هل يمكن أن تكون غير الذي أظن؟! قصتها مثيرة وتحمل أسئلة محيرة لا إجابة لها أبدا.

وبقدر رغبتي في فك طلاسمها، بقدر خوفي العميق في معرفتها لماضيها، ستتذكرني كصورة أرييل آشر القاتل، الذي قتل هو وكتيبته كل قريتها في مذبحة لا رحمة فيها.

لكنها كانت معجبة بخليل، الذي هو أنا، بعمله البطولي والسري لصالح القضية الفلسطينية، فقد كانت تمقت الصهاينة وتنبذ شيئا اسمه دولة إسرائيل.

حملت سارة، فاكتملت سعادتي وبشراي، أردت طفلة جميلة مثلها، تمنيت ذلك بشدة، وأصبح موعد وضعها في أية لحظة.

بعد يوم

الأول من نيسان **1950**

الساعة الصفر.

سارة نائمة بجانبي، كنت أتمعنها طيلة الوقت، وهي نائمة، أتلمس بطنها المستديرة، التي تحمل فيها طفلي، وليتها تكون طفلتي.

تلمست شفتيها برفق، أهدابها الكثيفة والطويلة، رحت أسأل نفسي بخوف. ماذا سأفعل دونها؟ فلا حياة لي أبدا من غير سارة.

ثم أخذت يدها ألثمها بشوق وحنان وشغف.

وفجأة، فتحت عينيها الجميلتين وابتسمت لي، ففُتح باب من النور، سألتني برفق إن كان النوم قد جافى عيني.

وبدأنا حديثا ليليا مملوء بجميع أصناف الود، أتلمس فيه ذلك الطفل المختفي داخلها، أكلمه، أحثه على الخروج، لرؤية جمال سارة فيه.

ونحن كذلك حتى انقبضت، وقبضت على يدي بقوة قائلة:

- إنه المخاض يا خليل، لقد جاء موعد وضعي.

لحظات حتى أحضرت ثلاث قابلات، أدق باب الأولى وأوصلها لبيتي، لأدق في الحارة المجاورة على الداية الثانية والثالثة.

كنت منتظرا بلهفة وخوف، أنظر لحياة سارة وسلامتها بخوف أكثر، أمد قلبي نحو كل دعاء، ألا تتفرق سعادتي مجددا، فهناك ذلك الصوت الذي يشرح الماضي فوق قلبي بسكين جارحة.

إلهي إنني أتوب عما سببته من موت، أعتذر من كل أحد جرحته، أو سكبت قطرة من دمه أو عذبته وأحباءه يا رحمن.

طالت الساعات وصرخاتها تستنزف صبري، تضخم خوفي، توقظ الكثير من ذنوبي، وتؤلم أصابعي ويدي.

خرجت، دخلت، ورحت أجوب كل أزقة الحارات، لا أذكر حتى مسافاتها وزمنها.

وعندما وصلت دون شعور لباب منزلي، وقفت أمامه لبرهة، أستمع لصرخاتها داخله، ولكن المنزل كان ساكنا، أصابتني رجفة، وعندما دخلته بخطوات مثقلة بوجل، خرجت الداية سعدية، نظرت لي واقتربت مني ببعض الثقل قائلة:

- لقد صرت والدا يا بني، إنه صبي كالقمر ما رأيت أجمل منه.

سألتها متلهفا عن سارة، وعندما صمتت سال عرق بارد على جبيني، وانتشرت موجة باردة على كامل جسدي، تنهدت واستجمعت السؤال مرة أخرى:

- تكلمي.

فقالت:

-هي بخير وسالمة.

عندها أحسست بفرحة عارمة، وابتسمت ولكن سرعان ما تداركت وجهها المتجهم، فانكسرت فرحتي وعاودني الخوف، فنظرت لي بعد أن أحست هذا وقالت:

-ولكن..

ولكن، كلمة تقصف قلبي بسهام ملتهبة، يا هذه ما الذي يحدث؟

أمسكت ذراعها، وقد فرغ صبري غاضبا دون وعي، أحثها على إخباري بأمرها فقالت:

-لم تتوقف عن البكاء أبدا، أخاف عليها من كثرته يا سيدي، وهي امرأة ضعيفة ونفساء.

دخلت مسرعا لغرفة سارة، وجدتها متكئة بجانب طفلي، وصوت بكائها يقسم قلبي فتاتا.

سارعت نحوها، وعندما رأتني دخلت في هستيريا، أصابتني بفزع وجنون.

كأنها بقت في الزمن نفسه الذي رأيتها فيه أول مرة مرتعبة.

لقد تحقق خوفي، وانتقم كل شيء اقترفته بيدي مني، فأنا متأكد أن آلام الولادة المتعسرة جعلتها تتذكر مذبحتي، تتذكر وجه أرييل آشر، الذي كان سفاحا وقاتلا ومنعدم الرحمة والضمير.

تحققت أشد مخاوفي وقد رمتني في مجهول، لا أعرف نهايته أبدا.

أصبحت منقسما وأتجزأ باحتقار لنفسي، أصبحت بعيدا جدا، عن ما ملكته قبلا من رغد الحياة ونعيمها.

إنني بعيد.. بعيد جدا، ولا أعرف كيف أرجع للحياة نفسها.

اختلط علي كل شيء، تدهورت حالتي كما حالتها، وصار الرضيع مهمشا من كلينا.

دخلت أحاول أن أكلمها، ولكن في كل مرة أفعل ذلك كانت تنزح نحو المرض والاكتئاب.

وتغيرت حياتي كلية نحو السوء، وضاع كل ما يحيط بي، دون استثناء لشيء.

وبعد الثلاثة أسابيع، من المرارة والتسكع في الحارات متسخا مهموما مشتت البال.

حملني شخصان لا أعرف عنهما شيئا، إلى سيارة صغيرة، ورحت معهما دون أدنى مقاومة مني، فأنا لا أقوى على شيء.

وصلت لمكان يقطعه طريق جبلي، فوجدت إسرائيل يزيف ينتظرني، توقفت السيارة ونزل الجميع ليصعد هو، ويجلس جانبي ينهش سجائره واحدة وراء الأخرى غاضبا.

تكلم مطولا عن بطولاتي السالفة، التي كان يراها بعينيه هو، وكنت أراها بمقت وندم.

كان يتكلم بلهجة العتب، وكنت أسمعه خائر القوى، أخاف من مصير سارة وهي في تلك الحالة من الجنون.

أحس مني هذا، وعرف أن عقلي يبعد كثيرا عن عالمه وثورته وحربه.

صمت، ثم نزل بقى قليلا خارجا، ثم دخل وضرب بكلتا يديه أمامه وبعد هنيهة، مسح عرق جبينه بمنديله الذي أخرجه والتفت إلي قائلا:

- هذا الوقت لن نمزح ولن نمرح فيه، ولن نترك أبطالنا يغرقون، ودولة إسرائيل تحتاج كل بطل منها لتخرج إلى النور.

صرخت في وجهه دون شعور:

- تبا لدولة إسرائيل، اللعنة عليها، اللعنة عليكم جميعا، دولة سفاحة وقاتلة وأنانية..

وقبل أن أفرغ غضبي، انهال علي بلكمة صوب عيني اليمنى، أصابتني بارتجاج أفقدني وعيي، لأصحو على ماء ينسكب على وجهي، ووجه إسرائيل يزيف فوقه غاضبا وهو يقول:

-هي السبب، سارة هي من جعلتك تغير فكرك وذاتك يا أرييل، وتأكد تماما أننا سنمحوها من الوجود.

نهضت كالمجنون، أستمد قوتي من الغضب، ممسكا بقميصه بكلتا يديّ، غاضبا والشرر يقذف من عينيّ، أهدده بعدم اقترابه من زوجتي، وإلا أحرقت كل إسرائيل على رأسه.

أمسكني شخصان، ورماني في حارة بعيدة عن منزلي، ورحت أجري تارة وتارة أخرى أهرول، حتى وصلت منزلي، لأجد بابه مفتوحا، فشعرت بانقباض في صدري.

دخلت المنزل ببطء، و رأيت غرفتي أنا وسارة متقدا نورها، اقتربت شيئا فشيئا، فتحت الباب لأجدها مع الداية سعدية، وهي تطعمها بيديها.

نظرت إليها، ونظرت إلي، كانت ساكنة وحزينة فجثوت إليها أبكي وأرتجف، لتمسك رأسي وتدمع عيناها بغزارة، تحن وتشتاق لرجل لا يستحق منها ذلك.

القلب الحي.

أيها الرب الذي في السماء، الذي أشهد أنه رب هذا الكون وخالقه، وأشهد أنني بذرة في كونك عاثت فسادا.

أيها الرب، البشر لا يغفرون، لا يعرفون أن التوبة تمحو جبال الخطايا والذنوب، وتسحق الظلام والسواد، وتنير نورا.

أيها اليائسون الذين يتخبطون مثلي، بين العذاب والموت، ويبحثون عن طريقة تطفئ جمرة متقدة، من الذنب والخطيئة.

أيها اليهود، يا من يسكنون بقعة لا تعرف غير لعنة الرب فينا، لا تكملوا طريقهم، تعلموا الخير بعيدا عن صهيونية معتقداتهم وانتظروا المسيح.

انتظروا يده الممدودة لكم، ليجتثكم من سوادهم وخرافاتهم، بدولة من الوهم عاثوا فيها ظلما وفسادا.

إنني أتقوقع هذه الليلة معها، طفلي أراه لأول مرة فأقبله، أرتعش ..أرتعش كأنني سألمسها لأول مرة.

قالت:

-الألم يعيد العقل ويذهبه وكلاهما لعب بي..

قاطعتها أختبئ بصوتي الهامس من خجلي قائلا:

-سارة..

نظرت لي وقالت:

-بل أهافا يا خليل..

نظرت لها وقلت:

-بل أرييل يا أهافا.

ابتسمت بسمة ودت لو تخفيها عني، وقالت بصوت خافت يدس بعض الحنين:

-أنت لا تنتمي لتلك الصورة يا أرييل، لقد عشقت وأحببت رجلا رقيقا ورحيما.

أخذت يدها ضعيفا ألثمها قائلا:

-والرب، ورب موسى وهارون، لقد تبت منذ ظهرت في حياتي، وأقسم بحق توراة موسى ما قتلت نفسا واحدة مذ رأيتك ودخلت دنياي، غفرانك يا أهافا يا حب قلبي.

ليلة من العتب والغفران، ليلة بصباحها الذي أشرق علينا، وقد تملكها الحنين لزوجها وحبها المجنون إليه.

الله يغفر، والعاشقون أيضا يغفرون، والمغرمون أيضا لا يحملون إلا كم كبير من الحب، الذي لا يفنى أبدا مهما كانت الأسباب.

ولحد الآن مضى الوقت، بين الحب واللوم والتوبة و الغفران، لا أحد فينا حكى للآخر قصته وسره، وقد كنت معها نهيم بين نفسينا، فالشوق والحب والخوف تركيبة تدمج المحبين في ود وسكينة لا مثال لها.

نسيت معها كل الماضي، حتى ما هددني إسرائيل يزيف به، نسيته بين أحضانها، وغفرانها بسعادة لا أرجو ما يكدرها.

وجاء الضحى فاغتسلت، ورتبت نفسي لأرجع الشاب أرييل آشر، الذي تخيف رهبته الناظرين.

وأول ما فعلته، أنني شكرت الداية سعدية، لجميلها مع الحبيبة سارة..أقصد أهافا، أهافا! أليس هذا الاسم اسما يهوديا؟!

ولكنني وأنا أفكر، اشتريت للمنزل ما يلزمه من حاجيات، وطفقت راجعا لبيتي.

إلى غاية اقترابه مني. أجل، إنه إسرائيل يزيف الملعون اقترب حتى جانبني وقال:

-إنها درجة مستواك يا أربيل، التي تنزلني من تل أبيب إليك أنت يا صديقي.

هذا المظهر يطمئنني بأنك رجعت لرشدك، فهنيئا لنا بك يا عقل الشيطان.

حسنا، أراك صامتا، إذن لن أطيل عليك، وللغد لقاء آخر نوضح به الأمور جميعها.

على فكرة وقبل أن أنهي كلامي، فالداية سعدية أخبرتنا أن الغالية سارة بخير.

تجمدت مكاني، وعرفت أن الأمر لن يمضي هينا وبسيطا علي، وهم يهددون أعز ما أملك في حياتي.

رجعت للمنزل ألتفت يمينا وشمالا، أغلقت بابي بشدة ودخلت منزلي.

وجدت أميرتي وطفلي، وقد كان ملاكا صغيرا، تلفه بأحضانها المشرقة كالفجر الدافئ.

عندما رأتني ابتسمت لي فسكنت، قبلت يدي فارتمى كل حمل ثقيل أحمله، على روحي بعيدا.

ولكن.

بعد أنس منها، طلبت منها أن تسرد لي قصتها وما حكايتها، وسر هذه الشخصية التي تتفرد بها فقالت:

البداية كانت منذ ثلاث سنوات تقريبا، كنت أعيش في هولندا أنا ووالدي في سكينة وثبات منها، كان والدي ديان يدرس مع أكبر الشخصيات اليهودية من الأرثودوكس، المؤثرين في العالم، شخصية اغتالها الصهاينة لتعلوا كلمتهم على كلمة الرب، ويتحدونها جبروتا، إنه "البروفيسور يعقوب إسرائيل دهان"

أحسست بوقع المفاجأة علي، ومن لم يعرف البروفيسور يعقوب إسرائيل دهان؟ الشخصية التي كادت أن تغير تاريخ ومسار إرساء الكيان الإسرائيلي!

أكملت قائلة:

-عندما بدأ الصهاينة في نسج خيوطهم، حول العالم كله، علم البروفيسور يعقوب دهان بوعد بلفور، فسافر هو وأبي لبريطانيا لتغيير رأي الساسة هناك. وبالفعل فقد نجح فعلا، واستطاع التأثير على شخصيات بريطانية رفيعة المستوى، لإفشال وعد بلفور، ونزل بعد عدة جولات وتحركات سياسية منه لفلسطين ومعه أنا ووالدي.

الآن يجب أن أخبرك يا أرييل، أنني مع نهج أبي الروحي البروفيسور يعقوب دهان، مدى حياتي وما عشت فيه على هذه الأرض يا حبيبي.

سألتها حائرا:

-ألهذا كنت تتقنين ذلك الكم من اللغات يا عزيزتي؟!

أجابتني:

-أتقن خمسة لغات والعربية منها، وهذا بفضل اعتناء البروفيسور يعقوب دهان بتعليمي ودراستي.

سألتها:

-ولكن يا غاليتي، ماذا كنت تفعلين في دير ياسين؟ وأين هما والداك؟!

أجابتني منكسرة.

-عندما نزلنا فلسطين أنا ووالدي والبروفيسور، وبعد مدة وجيزة من ذلك، تم تنفيذ اغتيال البروفيسور يعقوب اسرائيل دهان في إحدى شوارع حيفا، بعد أن استطاع أن يؤثر في شخصية ملكية أردنية رفيعة المستوى، وأيضا شخصيات بريطانية أخرى لا يستهان بها، وغايته كانت بذل كل مجهوداته، للعمل على دحض ورفض وإعادة النظر، في وعد بلفور المجحف والظالم، وحماية دولة فلسطين من الصهاينة، ليتم بعدها اغتيال والدي تباعا.

لقد كانوا يبحثون عن أي أثر كان مع البروفيسور يا أرييل، قد كان شاهدا وملما بجريمتهم، ولهذا كان من المخطط تهريبي نحو دير ياسين، لأهرب بعدها للبنان ثم تركيا وبعدها أرجع لهولندا، من طرف شبكة تسعى جاهدة لحماية الحرديم، في أي مكان من العالم.

اغتيال البروفيسور من طرف الصهاينة، كان ضربة موجعة جدا لنا.

ولكن. قضى الله هناك أمرا آخر يا عزيزي.

فقد التقيت بعمي يهودا، في منزل جدي الكبير بعد أن توفي والدي، وهو منزل كان يقع في حي مئا شعاريم، وعندها ذهبت لقرية دير ياسين، بعد أن عهد بي لأحد أصدقائه هناك، وتنكرت بلباس صباياهن، للهروب مع بعض أصدقائنا العرب.

ولكن، حدث الذي حدث يا أرييل.

صمت قليلا، فالقصة تبدو غريبة وممنهجة بطريقة قدرية مدهشة، والحبيبة كأنها رسالة الإله لي من السماء، بل هي يده الكريمة لي.

وغفرانه الذي سأمسكه داخل فؤادي المنكسر بالذنوب.

نظرت لها وقلت:

-هذا قدرك يا أهافا، قدرك وقدري يا حبيبة روحي هزت رأسها هزة خفيفة وقالت:

-وما حكايتك يا أرييل، يا بهجة قلبي؟.

فقصصت عليها ما كان بي، منذ وقعت في غرام أيالا والتي هي أختها دون أن تعلم، إلي غاية اللحظة التي بيني وبينها الآن.

نظرت حزينة مشفقة علي قائلة:

-ما الذي كنت فيه يا حبيبي؟! ما الذي اقترفته يداك وجنتاه عليك؟ بالله وحق موسى، ما أصبرك على نفسك وكل الذي حدث.

دمعت عيناها وبكى طفلنا، فالتففته تحنو عليه، صمتنا صمتا يغرس داخل نفسينا الألم والخوف، كلانا يعزيه الحب فيتمسك بأمل الغفران، كلانا وجد الآخر من عمق الفقد والرغبة في غرام

نتبادله بلهفة وجنون، فلا يصح عشقي لغيرها كما لا يصح عشقها لغيري.

بالرغم من كل شيء وكل ما كان، فعشقي لأيالا أصبح مضاعفا لأهافا، صورتها الكاملة التي هي عليها، زادتها شخصية ثورية وناعمة وقوية، مزيج الجمال والأنوثة والقوة، يبعث سحرا خلابا وفاتنا.

أي الذي كان يحدث لي، فليس من فراغ ولا من قبيل العشوائية والمصادفة.

كل شيء كان بتدبير قوة عظيمة، تكتب قدري وتسطر حياتي.

كان الليل قد أسدل على السماء صور النجوم، وتخلله بدر أضاء القدس بصورة بديعة الجمال.

ودق الباب هذه الدقات، التي لا تحمل من طوارق الليل ما ينبئ بخير، الطارقون بضرباتهم المدروسة، كانت بعض من أفراد كتيبتي المتخفية عن الأبصار والأسماع.

أحسست برعب منهم لأول مرة في حياتي. تذكرت طفلي وزوجتي، وهما قنديل أملي وضرب سعادتي.

ابتسمت تمثيلا لا ترحابا، وأدخلت ليفي والخمسة من كتيبتي لغرفة الضيوف، فدخلوا كأنهم ينتظرون ذلك وتكلم بعدها ليفي قائلا:

-أأسف يا سيدي على الحضور لك في هذه الليلة، وفي هذا الوقت، ولكننا مأمورون لأجل الحفاظ على دولتنا وقيامة هيكلنا، وما أنت إلا فرد أمام الجميع.

تلمست سلاحي الذي وضعته قبل أن أفتح الباب، واستعددت لأي خطر يتربص بي أو بعائلتي، وإن كان لقتال أفراد كتيبتي، وإذ بي أسمع صراخها وهي تنادي اسمي، ففقدت توازني وتركيزي.

فاقترب ليفي وخطف سلاحي مني بخفة.

وأصبحت أعزل منهوشا، أجن من ثقل خوفي على أهافا وطفلي.

أصبحت أسيرا لهم، أتخبط بقتال الستة الذين كونتهم وسهرت أصقل تدريبهم.

أصبت الجميع وصرعتهم، فالمعلم لن يتفوق عليه التلاميذ، ولكن عندما خرجت، وجدت أهافا وحيدة تنظر بخوف مريع نحو إسرائيل يزيف، الذي يحمل طفلي بين ذراعيه.

أصابني شيء، لا أعرف وصفه ولا شرحه، كان كمثل الرعب والجبن والشجاعة، أحسست بأنني سآكلهم بأنياب، ستخلقها الرغبة في حماية عائلتي.

ابتسم كذئب تملك فريسته وباتت له، شعرت بالضعف لأول مرة، وتذكرت كل ضحاياي، كل الذين قتلتهم دون وجه حق، تذكرت نظراتهم الضعيفة كما نظراتي أنا الآن، والتي لا حول لها ولا قوة.

الموت لي، سحقا! ما أمر هذا الشعور!

تقدم إسرائيل يزيف نحوي، حاملا طفلي، قائلا بفخر وقسوة:

- هذه بركاتنا التي نحملها لعائلتك، بالمولود الجديد، بالزوجة الخلابة، ونتمنى له عمرا طويلا بين أحضان هذه الأم الجميلة.

ثم توجه إليها، وهي تستعطفه لإرجاع الصغير، فأعطاها إياه ثم مد يده الكريهة نحو وجهها، فنهشني الغضب، لأرميه بلكمتي التي صرعته أرضا.

أرجعت أهافا ورائي وهي تحمل طفلي بين يديها، وأمرتهم بالخروج فقال يزيف غاضبا ممسكا عينيه المتورمتين من فورهما:

-يهون كل شيء لأجلك يا شيطان الهاجاناه، ولا بأس، ولكن في الغد ستكون معنا وفي مكاننا المعتاد بتل أبيب، وهذا إنذارك الشخصي الأخير.

وخرج إسرائيل يزيف ومعه أفراد كتيبتي، وقد تركوا خللا من الأمان يتكسر كصوت الجليد.

انفجرت أهافا باكية، فاحتضنتها أسفا وندما، ويغرق جبال المودة طوفان الدموع.

وضعت الصغير في مكانه، وقالت ممسكة يدي:

-سنخرج الآن يا أرييل، سنهرب لعمي الحاخام يهودا، إنه في حي مئا شعاريم، لن يستطيعوا طرقه ولا إيجادنا هناك، هم سيتخيلون أننا خائفون ولن نستطيع التفكير في الهرب في التو واللحظة.

ما أجمل امرأة شجاعة! لا تخلق من ضعف الأنثى منهجا لحياتها، لا تكسرها الظروف ولا تنهشها، إنها حية، ولها ذلك القلب الحي وبكل معاني الحياة لهذه الكلمة.

كانت فكرتها صائبة وسديدة، وحملنا بعد خمس دقائق من خروج أفراد البلماخ، نفسينا والطفل نحو حي مئا شعاريم.

مئا شعاريم.

نحن البشر متغيرون، لا نكون على حال ولا نستقر عليها، بل لا نقنع بأي حالة تكون عليها حياتنا.

إننا طماعون، لا تكفينا أشياؤنا الممتلكة، نهوى كل شيء بيد آخر كان سعيدا به، فرحا طروبا فنأخذه طمعا في سعادته أو كرها لها.

وهنا على هذه الأرض المقدسة، يقف التاريخ فيها جبارا، يكتب ظلم بني صهيون، وظلم العالم الصامت والذي يشارك مقتنعا بظلمه، سلب حق الأرض، وقتل المدافعين عن الحقيقة، والذين يتحولون لشهداء، رغم أنف الظالمين.

وهذا التاريخ سيكتب أيضا، تاريخ الرجال والشجعان، سيكتب عن هذا الرجل الذي ترك ماضيا طمسه الصهاينة، لأنه دافع عن الحق والعدالة والحقيقة.

تاريخ البروفيسور يعقوب إسرائيل دهان، تاريخ الرجل الذي دفع حياته ثمنا لترسو العدالة أرضها ومكانها، ولا يتلطخ اليهود بدم بريء، وبلعنة ومحق آخر من الله القدير، فلقد أراد عدالة حقيقية ينشرها بين الإنسان، ليأخذ كل ذي حق حقه.

تاريخ شامخ كالسنديان، وكالجبل الواقف ضد القهر والظلم والظلمات.

كانت قيمه تتخبط في لجج من طوفان الحرب الصهيونية الظالمة.

فتمسكي أيتها الإنسانية المتبقية بسفينة نوح، فالطغاة يسخرون من الحكمة والعدالة، والظالمون يلونون السواد عساه ينير ظلمة حالكة.

هذا الحي الذي يقع في القدس، علمني كيف أكون إنسانا.

علمني كيف أصبح رحيما، وعادلا وبشرا، كأن الوحوش التي مزقتني، وطمست أعماقي ذابت وتحولت فراغا يفصلني عن السعادة وراحة الضمير، بكثرة الندم والألم الذي تبعثه الذكريات، فيتشتت نوم جفني.

وصلت حي مئا شعاريم، أنا وعائلتي الصغيرة نرجوها سبيلا للنجاة، أحسست بقلبي يخفق فهناك رهبة في المكان الساكن، الذي يخفي اليهود الأرثودوكس، داخل بيوتهم وجدرانهم البسيطة، أو من أسميتهم العادلين.

إنهم الأنصار والحواريون، الذين ينصرون المسلمين طمعا في رضوان الرب، طمعا في تثبيت الحق فوق التراب المقدس، مهما كانت الليالي التي يقضونها في فقر مستديم وقاس، إنهم الحرديم، صفوة اليهود وأعدلهم.

ولو تعرفون..

لقد كان كل الذي فعلته يمزقني قطعا، يشوه الزمن الآتي والماضي ويوقف الحاضر حزنا، فما أقساه!..

ما أقسى الضمير وأقدره!...

عذابه يلين القلب ويضعف الجسد، ويقتل النوم بين الجفون.

ما أصلبه على خفق القلب! وما أسيل نبع دمعه الهادر والعظيم!

لقد احتضنني الحاخام يهودا، في قلبه قبل منزله الضيق والبسيط، يوم احتجته في مفترق بين الموت والحياة.

كأنه والد رحيم، ذو قلب مشفق وكريم فسلمته حياتي وأمرها الذي لا أطيقه فحنا علي كالماء المثلج على النار، ورويت له كل ما

اقترفته شيطانيتي، دون أن أقطع أي شيء من أحداث وحقيقة القرف الذي كنت فيه.

فهزه أمري، واستعظم ذنبي واستضعف نفسي وذاتي التائبة.

أشفق على أحمال الخطايا التي أحملها فوقي، وما كنت لأشفق أنا على نفسي وذاتي، ثم أشفق على وصمة العار التي سكنت هذا الانسان القاتل والمغتصب، الذي لا طعم لحياته وبشريته على هذه الأرض.

وهتف لي مناجيا الرب، أن يتقبل برحمته توبتي، كان هذا الحاخام مجموعة من اللين والرحمة، تخللته نوبات الرجال الشجعان، الذي يمسكون بيد كتاب الله، وبيد أخرى أحزان الناس.

مر من الزمن علي أنا وأهافا وطفلي، ما يقرب الأربعة شهور في منزل الحاخام يهودا، والذي كان وحيدا دون ولد لأنه عقيم، فقد توفيت زوجته منذ الثلاث سنوات، ليتخذ من خدمة الدين كل حياته.

كنا بمثابة عائلته ووطنه، وشغله الشاغل مع القضية العظمى، في محاربة الصهيونية واحتلال فلسطين وسلبها من أهلها وأصحابها.

كنت أعيش هزة عظيمة داخلي، مع الذي يحدث لي فليس الذي يعتريني سهلا ولا ممكنا.

كان هناك شيء يحركني لكي أتغير، لكي أثور حتى على مرضي، الذي يجعل منه الانفصام مشدد القوة والألم.

أنا لم أنس أيالا، لأنها أمامي بصورتها التي لا اختلال فيها، كنت متيما بها ولا زلت، وسأبقى كذلك وقد سكن الحب في أهافا فتضاعف وتجذر واكتمل.

والآن في حي مئا شعاريم، وبين الحرديم تحول أربيل آشر لإنسان لا يشبهه في شيء، هذا التحول ليس لعيون أهافا، أو امتنانا للحاخام يهودا، إنه قوة جبارة أخرى خلقت فينا نحن البشر، إنها قوة الذنوب والخطايا التي تقسم دون رحمة الخطائين، تقسمهم لبعض إنسان أو شتات إنسان.

كنت سفاحا وأصبحت مقاتلا مناضلا، يؤمن بمبادئه دون حد.

تجذرت داخلي قوة أخرى، وأخرى غير التي تملكت نفسي قبلا.

انسلخت من حياتي القديمة كلية، وزادتني ثورة أهافا ثورتها القوية، فتهشم الشذوذ النفسي على صخرة القدر.

تمدنت أفكار عقلي وتحضرت، من حيوان بشري مفترس دون رحمة، لإنسان يحاول أن يرحم ليرحم.

ومع الوقت توطنت أفكار الحرديم روحي، والروح قوة لا تفنى ولا تنكسر، الأشياء التي تتبناها الروح لا تأفل يا سادة أبدا.

وبدأت حياتي، بدأت حياة أخرى كنت أحاول فيها اللجوء للرب ونسيان الماضي، تمسكت بشكل تام بالهالاخاه، وهي الشريعة الأرثوذكسية اليهودية، التي ترفض أن تنظر مجددا في الشرائع والتقاليد اليهودية الدينية .

وذبت مع الحرديم، وأصبحت أدرس في مدارس اليشيفات، وهي مدارس خاصة بهم وعلى طريقتهم التي تعزل فيها الذكور عن الإناث، ويتم التعليم التقليدي للشريعة والتلمود.

ولكن لا شيء يدعك تنسى، أهافا تعشق القضية ويسكنها طريق الوالدين، فلا زالت تدين للبروفيسور يعقوب دهان، ومهما كلفها ذلك من أمر.

وبالرغم من قلقي فهي تتسرب مني كحفنة ماء، وتجتمع بحركة ناطوري كارتا.

حتى سحبتني معها، كانت ثائرة ضد الظلم والقتل والموت.

أرادت حياة للجميع دون حصرها للصهاينة، وأحسست أن هناك الخطر، الذي يسكن الطوفان ويلعب بحياتي بسخرية وشماتة.

الموت الأخير.

يا حبيبتي، أليس العالم مزعجا؟! فكيف إن كان دونك؟

ما يفعله الشوق بالقلوب المحبة شديد، فما أقساه!

فراق الأحبة لا يلتئم أبدا، لا يجبر شرخه أبدا.

فكل أشيائهم بعدهم متكلمة، تثير شجنا خالصا لا ثاني له.

والثورة ثمنها عظيم ولكنه باسق بشرف، ينتعل لباس الملوك، ويتخذ من التاريخ رمزا ورفعة.

لا شيء يقف أمام القدر أبدا يا أهافا.

حركة ناطوري كارتا، تتأجج غضبا في يوم استقلال الصهاينة والذي كان عيدهم الثالث، الصيام كان في كل بيت من بيت مئا شعاريم، كانت شعائرهم لطلب الغفران من الرب، ليغفر لنا الله سطوتهم على الأرض الفلسطينية، وقتل أهلها ظلما فليت الله يغفر لنا.

كنا نتظاهر ضد الصهاينة، نحرق علمهم الأزرق الذي يرسم بخطيه الأزرقين عار بني صهيون، والذي يسول لهم أملا كاذبا، أن يمتد عارهم من نهر الأردن لنهر النيل.

حملت أهافا ذلك العلم وأحرقته، وتقدم دفق من سيل الخيالة الصهيونية، كأنهم يريدونها هي بذاتها.

صحت داخلي غريزة المقاتل، وقد شممت رائحة الموت والخديعة وكيف لا؟! وأنا صانعها بين أظافري الدامية. وبمعطفي الطويل الأسود وقبعتي السوداء، وشعري المسدل إلى صدري تقدمت مسرعا إلى جانبها، ولكنني أحسست بضربة على رأسي أفقدتني

الوعي، أجل أفقدتني الوعي وأفقدتني بعدها قلبي، تاركة روحي تهيم.

ذلك اليوم جعد وجعي دون رأفة، أمسك علي طعم أي شيء في هذه الحياة الحقيرة، بحقدنا وكرهنا وعنصريتنا ورغبتنا في احتكار السعادة لذواتنا المنهكة وراء السراب، وليكن ذلك. فهل أطمع بطعم الحياة والظلم والموت؟ والذي افتعلته كان مكدسا علي، بثقل عظيم على الذاكرة.

هات ألمك أيها القدر، هاته هنا. فهذا الموت هو الموت الأخير بأعداده المكررة.

فعيني التي رأت أهافا ممزقة، أصبحت عمياء لا ترى البشر بعدها.

لقد صحوت في تل أبيب، في مكان موحش وبارد ومظلم، فتحت عيني على جسد أحب الناس إلي، ممزقا وعاريا ووحيدا أمامي...فيا وجعي.

لم أستطع إنقاذها من الغيلان المفترسة، وتخيلت عذابها فارتجفت..

سمعت ألمها ينخر نخاعي بمسامير من الجمر، وارتجفت...

ورحت أجمع أطرافها وأحتضنها علني أدفئها، ثم فقدت وعيي مجددا، سقطت في عالم مظلم ولكنه ساكن وكل شيء فيه مخدر حتى وجعي، الزمن في غيبوبتي جامد ويخلو من قوة هذا العذاب، ولكن الحياة شرسة ولا ترحمني بهمج الصرخات المريعة والتي جمعتها في أذني كلحني المذنب الأخير. وصحوت بعدها على زمهرير ماء بارد ومثلج كحياتي، كنت مربوطا بسلاسل الحديد، وروحي مربوطة بسلاسل الحزن.

نظرت لأرى الحاقد المتوحش أمامي، رأيته وقد كان كل شيء يكونني مصابا بخدر هائل يعيق حتى بعض تلك الأنفاس المتبقية داخلي، والتي لا رغبة لي فيها، ولا قدرة أملكها لكي أوقف صوتها الذي أكرهه.

أمسك إسرائيل يزيف رأسي، وقال هامسا بحقده في أذني التي باتت صماء.

- جسد أهافا الطري، تملكه الأربعون من البلماخ يا أرييل.

ضحك ساخرا ووجعي يتضاعف ويتكاثف، ويميل للجنون بشدة. رحت أنزف دما وروحي تنزف طاقة لا حاجة لها بها بعد هذا التاريخ، المضنية ذكرياته والموجعة أيامه علي.

وأكمل:

-تستحق العشق، كانت كذلك، تستحق أن يحبها أي رجل ولكن لا تليق بك يا أرييل، لأنها خائنة خانت دولتنا ووقفت ضد رغباتنا. حولتك ضدنا وغيرت عقلك الشيطاني السحيقة عظمته، فاستحقت ميتة شيطانية كتلك...

راح يتكلم، ولم أكن أرى إلا شفاهه الزرقاء المتحركة، في وسط ظلام وبرد ينقط دواري.

وبعدها لم أذكر شيئا، لا أذكر قوة هذا الألم والوجع العنيف الذي بخرني نحو السماء، لأنزل غيثا على جهنم الدنيا، لأقاتل الظلم بعد أن كنت ظالما وقاتلا بل سفاحا لا رحمة له.

وبعد مرور أربع سنوات من عمري، أتعالج فيها في مركز نفسي في بريطانيا، تحت مراقبتهم الشديدة لي.

ظنوا أنني سأنسى زوجتي وحياتي، وأنسى قضيتي وقوميتي وما غرسته أيالا ثم أهافا.

ظنوا أن الحب هو من جعلني أنقاد وأسير، ولم يعرفوا أن الذين أحبهم علموني معنى العدالة، وحقيقة الظلم ومعنى الغفران وما هو الإنسان.

فكرت طيلة ذلك الوقت، كيف أغير هذا المحيط من الظلمة؟ وكيف أثأر لزوجتي؟ وكيف أتوب؟

تعرضت لجلسات نفسية عديدة، وهم يحاولون استرداد عقل الشيطان لأرييل آشر السفاح، ينومون شخصا تغيرت روحه لا عقله، ولم يعرفوا أبدا حجم التغيير الذي بت عليه.

وعندما أردت، استخدمت مستوى من الشيطنة بشكل آخر، فأعطيتهم آشر الشيطان، ولكنه الشيطان الذي أريده والذي سيتلاعب بهم، ويمزق الأيادي التي مزقت حياتي.

أعطيتهم عقلي المتلبس بالشر والذي أحبوه وأرادوه، ولكن هذه المرة المنقلب على شيطاني.

سايرتهم، وبعد العمل معهم لمدة ستة أشهر، حاولت خلالها بكل ما أملكه أن أنقذ حياة الجميع أن أنقذ الأعداء والأحباء، توقفت عن القتل أبدا فطريق الانتقام لا يكتمل إلا وقد ترك دمارا في زاوية ما بين الشعور، وخسائر أخرى من حرمة الأرواح، التي لا نمتلك قتلها إلا بالحق والعدل. ولكنني قتلت أخيرا الشيطان نفسه الذي أرادوه وحاولوا استخراجه مني، قتلت التفكير فيه، وكان هو آخر ما قتلت.

توقفت، توقفت عن آخر ما أجيده توقفت أخيرا، راجيا من كل أشيائي وذكرياتي، أن تخفف عني بعض هذا الوجع وما فعلت.

و رجعت بعدها لحي مئا شعاريم، رجعت هاربا وأخذت طفلي وشددت الرحال نحو هولندا، أين كانت تسكن الحبيبة أهافا، وبعت كل شيء ورثته منها، غيرت حتى اسمي وحتى شكلي، وأسست تجارة صغيرة كبرت مع الأيام، أتبرع بأكثر ما أجنيه منها، لحركة ناطوري كارتا ولعائلات مئا شعاريم.

وفي هذه الحياة المتبقية لي، كنت أبذل المستحيل لأجل أن أكفر عن ذنوب وخطايا لن ينساها التاريخ الإنساني، ولا تاريخي الذي رفس كل طاقة للحياة داخلي.

وأخيرا اعتكفت وحيدا، أجل، وجدت في التصوف دياري وراحتي وعزائي، كنت أعيش عالما يشبه كائنا ما، كائنا مسالما لأبعد الحدود، تفرغت له من العمل إليه بشوق، وأصبح اعتكافي فيه شفاء من بعض العذابات الدفينة التي تمسحت بها نفسي، وأصبحت بين الفراغ والوجود كقطعة تتجاذب مع الذكريات.

أصبحت متفرغا للتلمود للقرآن وللإنجيل، وليس انفصاما هذه المرة، بل كنت أتصوف وسط المقدسات، أستطيع أن أرى عالما معجزا مع النبي إبراهيم عليه السلام، أرى أنه كان موجودا في كل الديانات السماوية اتصالا لا انفصاما، تبحرت في شخصيته العظيمة التي هي اتصال تام، لمعتقدات النبي العظيم محمد عليه السلام.

تصوفت واعتكفت داخل أعظم شخصيتين في التاريخ الإنساني، واللذين كانا يناديان برب واحد وإله واحد لا يختلف فيه رب إبراهيم مطلقا عن رب محمد.

لأنسى العالم وأتذكر العظماء، وعظمة الكون المخلوق بيد هذا الخالق العظيم.

الدين في عالمي الوحيد والصوفي، كان قد رزقني السلام، رزقني الرأفة على الجميع، ورزقني عينا ثالثة هي البصيرة.

فالتائبون مخترقون من طاقة عجيبة في النفس، التائبون تصبح ذواتهم صافية ورقيقة ورحيمة ونادمة.

ويسكنها من البصر نظرات عميقة للحياة الهشة والفارغة.

نتعذب والجراح أفضل منا فقد خلقت جراحا، والألم أفضل منا لأنه كان ألما.

وفي صوفيتي الطويلة والممتدة لسنوات كثيرة، رأيت الدنيا بشكل مغاير تماما، لقد كانت مجرد نسيج من الزمن والمكان والبشر، مكونات ثلاثة فانية، لا عبرة فيها غير تركها لفنائها والزهد فيها.

وبعد أكثر من ثلاثين عاما، على حياة زاخرة بأحداث كانت بين قمة الشر وقمة الملائكية، عشت فيها إما مجنونا أو عاقلا، كنت ذلك الإنسان المختلط بين متضادات شديدة الوطأة علي، أمسكتني من أقوى نقطة ضعف للبشر وهي قمة الحب، وغيرتني حسب ظروفها ووقائعها.

وأخيرا وأنا أشيخ في هذا العمر، وتسير نحو الفناء حياتي وتقترب، تمعنت في ماض طويل عشته بطلا في عيون الكثيرين الذين عبروا حياتي، وقد جعلتني الأقدار في معظم الأحداث كذلك.

ولكنني عشت حياة معذبة ومسروقة ومليئة بالخطايا والذنوب، يكاد ثقلها على عقلي وقلبي، ينزلني مغشيا كلما تذكرتها واحدة وراء الأخرى، داخل عيني ذاتي المتكسرة والموجوعة.

عاشت تلك الشخصيات داخل نفسي، وترجمتها ببطولة ظالمة وعقل حقود وانتقام لا إنسانية فيه.

وربما لست السفاح الوحيد، الذي شعر بذلك وأحس به.

ولكنني اخترت طريقي الأخير، ولا أعرف فيه إن كنت تداركت نفسي الخطية، ليجتثني الخالق العظيم من هذا السواد المعتم، فأنا لا أعرف أبدا! ولكنني مددت يدي، مددتها وأنا مكسور، للقوة الوحيدة في الكون التي لا تنهزم ولا تتكسر.

لقد عشت وحيدا مع طفلي ديفيد خليل، حتى أصبح طبيبا وجراحا، وبقيت وفي العهد لما أحبته أهافا، وآمنت به أنا، رحت أعتذر من نفسي ومن يدي أطلب غفران ربي ورحمته، التي وسعت كل شيء.

التي وسعت ظلمي وذنبي وتجاوزته. رحت أستجديه فأنا أستجديك يا رب

فهذا القلب دافئ بإذنك ..ضعيف بي ..قواه ممدودة بضعف..إلهي هذه الروح خائرة لا تعرف سبيلا..تشغلها الدنيا وتفتنها الحياة الزائلة..تتمرغ في الخطايا دون قدرة..تضيق أحلامها وتطير..رباه ...أخطئ وأعيد ..أندم وأعيد..أبكي على نفسي الغريقة في الذنوب ..والتي تريد التوبة ولا تعرف كيف تتوب..

والسبيل إلهي يضيق..وأنت كل الحنان وحقيقة الطريق..

ربي هذا الوجه من يتقلب إليك في السماء ..تسأل عيناه عنك..وأنت يا من تقدست..تعرف شفاء روح غرتها الأماني والغرور..وتعلقت بعالم له شروق وغروب..تنتهي أيامه في لحظة...وربما قد لا أتوب ...إلهي تب على عبدك فهو لا يعرف كيف يتوب..فقد تمرغت أحلامه في زائل لا يعود. تعلقت بحياة صغيرة لا تحمل قدرا ولا وزنا..رباه أدركني ..

فأنا لا أعرف كيف أتوب.

فاعذروني واغفروا لي، وادعوا الله أن يخفف وطأة الذنب الذي لن أستطيع أن أنساه.

أرييل آشر القاتل.

أرييل آشر التائب.

12 تشرين الأول 1981

المؤلفة

أحلام الأحمدي

13 تشرين الأول 2018

الجزائر.

الدراويش رؤية جديدة

في مجال النشر والترجمة

www.darawesh.com
daraldarawesh@gmail.com
#/https://www.facebook.com/Daraweshplovdiv

Plovdiv- Bulgaria
2018

164